كابوس
رواية
الكورونا
زينب
مشهور
دار البسمة
للنشر الإلكتروني

زينب مشهور

اسم الكتاب: كابوس الكورونا

اسم الكاتبة: زينب مشهور

نوع العمل: رواية

الرقم الدولي EBIN: 16-1-218-230307

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2023م / 1444هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

دار بسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

Basma24design@gmail.com

المملكة المغربية

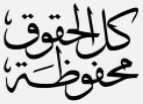

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

كابوس الكورونا

رواية

زينب مشهور

كلمة للنشر الإلكتروني

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

لست أدري كيف بدأت معي هذه المأساة، ولا أذكر بالضبط متى حدثت!

ربما ليلة رؤيتي ذلك الكابوس المخيف، أو يوم رويته لأقرب الناس لي، أو لربما بدأت عند اكتشاف أول حالة كورونا ببلادنا!

أظن على الأرجح أن البداية كانت حين بحت بهذا الكابوس اللعين.. نعم، إنها كذلك، قد تستغربون لكلامي هذا، وأنا أعذركم، لكنها الحقيقة كما تجسدت أمامي.

كنت أسمع فيما سلف أن رواية الكوابيس أو الأحلام السيئة فأل سيئ، يجعلها تتحقق معنا بالفعل، ولم أكن أُومِن بذلك أو أصدقه، حتى رأيتها تتحقق أمام ناظري.

صدقوني، إن الكوابيس تثأر منا حقًّا عندما نبوح بها، وكأنها تقول لنا: «ما دمتم لم تكتموا السر بداخلكم، ولم تحتفظوا به في قرارة

أنفسكم، وما دمتم قد فضلتم إشاعته وتعريته بينكم، فإني سأريكم إياه حقيقة، وأبشع مما تخيلتم».

سأروي لكم الآن قصة الكابوس الذي طارد نومي تلك الليلة، وكيف تحقق معي في الواقع.. سأحكي لكم كل ما حدث بالتفصيل، لا لشيء إلا للاعتبار مما حصل، حتى لا تقعوا فرائس كوابيسكم، وحتى لا تندموا كما ندمت، ولا تتألموا كما تألمت، إني أتحدث معكم عن صدق تجربة، وليس من عاش كمن سمع.

(السبت 14 مارس 2020)

في أحد أيام الشتاء الباردة، كنت أقضي عطلة منتصف السنة الدراسية بمدينة «مراكش» الساحرة، رفقة زوجي "أحمد"، وابني "بلال"، وبعد جولتنا بإحدى المناطق الجبلية ضواحي المدينة، عرجنا في طريقنا مساءً على ساحة "جامع الفنا"، التي عادة ما نختم بها جولتنا.

كانت مكتظة بالمتفرجين الذين يحجون إليها من كل حدب وصوب، سرنا بخطى حثيثة، متنقلين بين الحلقات، استمتعنا بنغمات عذبة شجية، كانت تعزفها مجموعة من الفرق الموسيقية، في وسط إحدى الحلقات كان بعض السياح الأجانب يشاركون في دق الطبول، وثلاث سائحات جميلات يرتدين فوق شعرهن الأشقر "الطاقية الكناوية"، تنسدل منها خيوط طويلة سوداء، كن يتمايلن برؤوسهن وأجسامهن الرشيقة على إيقاع الموسيقى.. بعدها انتقلنا إلى حلقة أخرى، وهي لحكواتي كان يسرد بعض الأحاجي والحكايا الطريفة.. ومررنا بعد ذلك بخيمة بها ثلاثة رجال من مروضي الأفاعي والثعابين بجلابيبهم التقليدية الطويلة، كانوا يعزفون الناي بموسيقى عذبة تبعث على الارتياح، وأمامهم أفاعي الكوبرا ترقص وتتمايل برؤوسها، وثعابين كثيرة مزركشة الألوان.. بعد ذلك صادفنا في طريقنا أحد مدربي القرود، كان يحمل قردا فوق رأسه، ضحك "بلال" وقال: «انظري يا أمي! إن القرد يرتدي حفاظة الأطفال!»، قلت له وأنا

أبتسم: «أجل»، سأله أحمد: «هل تريد أن تأخذ صورة معه؟»، فأجاب وهو سعيد: «أجل أريد ذلك»، فأخذنا له صورة مع القرد، ثم تابعنا المسير مستمتعين بآخر يوم لنا في العطلة.

في هذه الأثناء لمحت مجموعة من النساء يجلسن في وسط الساحة لنقش الحناء، فاستأذنت زوجي للذهاب لوضع القليل منها، فأجابني بالموافقة، وأخبرني أنه سيقوم بجولة في الساحة رفقة "بلال" ريثما أنتهي.

اتجهت صوب إحداهن، لما لمحتني أقصدها ابتسمت في وجهي، وأشارت لي بإحدى يديها لأجلس على كرسي بلاستيكي بجانبها.. جلست قبالتها، فأعطتني كتابًا به عدة أنواع من النقوش، بدأت أتصفح الكتاب؛ نقش صحراوي، شمالي، خليجي، هندي... بقيت محتارة لدقائق حتى عثرت على النقش المفضل لدي، فأشرت إليه بسبابتي قائلة: «أريد هذا من فضلكِ»، فرمقتني بوجه بشوش، وبريق السعادة يلمع بعينيها، ثم أمسكت يدي اليمنى ومسحت عليها بلمسة حانية من يدها، ووضعتها فوق إحدى ركبتيها بلطف، ثم حملت الإبرة بيدها اليمنى، وركزت نظراتها على باطن يدي، وقبل أن تضغط

على المقبض، سمعتها تتمتم بصوت خفيض: «بسم الله الرحمن الرحيم»، ثم شرعت في عملها بكل خفة ومهارة.

كنت مستمتعة بوقع الحناء الناعم والبارد على يدي، وبينما المرأة منهمكة في عملها، قررت أن أرفع رأسي، وأبحث عن «أحمد» و«بلال» في وسط ذلك الكم الهائل من الناس.

في البداية لم أتبين شيئًا، لأن الساحة كانت مكتظة جدًّا، فصرفت الفكرة من رأسي، وعدت أنظر من جديد إلى الحناء بيدي، وأتأمل تلك الزخارف الجميلة التي كانت في غاية الروعة والإتقان.

أنهت "النقاشة" وضع الحناء على يدي اليمنى من الجهتين، بعدها طلبت مني أن أنتقل بالكرسي للجهة المعاكسة، لتضع لي الحناء باليد اليسرى.. انتقلت إلى الجهة الأخرى وجلست، فأمسكت بيدي ووضعتها فوق ركبتيها اللتين كانت تفترشهما بثوب مطرز لحماية ملابسها من أن تتلطخ بالحناء، ثم شرعت في النقش من جديد، بعد قليل رفعت رأسي وبدأت أتأمل الساحة من حولي، وفجأة وقعت عيناي على ابني "بلال" الذي كان يقف بالجهة المعاكسة لي، لم أتبين غير ملابسه، وكانت المفاجئة صادمة، لم أصدق ما رأت عيناي فعلًا!

كان زوجي «أحمد» يقف على بُعد خطوات قليلة منه، وكان أحد الرجال من مروضي الأفاعي والثعابين، يحمل ثعبانًا كبير الحجم، مزركش اللون، بكلتا يديه وبكل احترافية.. اقترب من زوجي، ولفَّ الثعبان حول عنقه، ثم طلب منه أن يمسكه بإحدى يديه من جهة الرأس، وينظر في اتجاه المصور الذي كان يأخذ له صورة مع الثعبان، اتسعت عيناي من الدهشة، صرخت وأنا أهمّ واقفة، حتى كادت الإبرة أن تغرز بيدي وأنا أقول: «لا لا لا، لا تفعل ذلك يا أحمد! لا تفعل ذلك أرجوك!» لكن صرختي كانت مكتومة، فقد تحجر لساني في فمي، وبدأ الخوف يستشري في كل قطعة من جسدي.. لم أدر في تلك اللحظة ما أفعل! كانت الضجة تعم المكان، حيث أصوات الموسيقى الصاخبة، وأصوات الباعة الصادحة، وأصوات الزوار الوافدين على الساحة، بقيت مسمرة في مكاني، وصدري يعلو وينخفض جزعًا، فلم يعد بإمكاني منعه الآن، وليس أمامي إلا الدعاء، بأن يمر الأمر بسلام، وأن يحفظه الله من شر ذلك الثعبان.

لَكَمْ أخاف الحشرات الزاحفة، والحيوانات جميعها، حتى القطط والكلاب والفئران! أما الأفاعي والثعابين، فلا أطيق الاقتراب منها، حتى إني أشعر بالرهبة عند رؤيتها ولو على شاشة التلفاز.

بعد لحظات كالحلم، سمعت المرأة تكلمني وهي تقول: «سيدتي، اجلسي أرجوك! هل ما زلت ترغبين في وضع الحناء أم لا؟».. التفت إليها من دون أن أجيبها، وأحسست ساعتها أنه لم تعد لي رغبة في وضع الحناء حقًّا؛ فقد تعكر مزاجي، وبات جسدي كله يرتجف من الخوف!

عدت أنظر إلى «أحمد»، فرأيت الرجل مروض الثعابين، يأخذ الثعبان من على عنقه بكل هدوء ورزانة، ثم لمحت «أحمد» يتجه مبتسمًا صوب المصور، لينظر إلى صورته مع الثعبان.. كان سعيدًا بتلك التجربة الفريدة، لكنه لم يعلم ما سبَّبه لي ذلك من رعب وخوف، تنفست الصعداء، وهدأ روعي قليلًا، وحمدت الله أن الأمر مرَّ على خير.

عدت والتفت إلى "النقاشة" التي كانت ترقبني باستغراب، فاعتذرت إليها على هذا الموقف الذي لم يكن عاديًّا بالنسبة لي، ثم عدت وجلست على الكرسي، ومددت إليها يدي اليسرى من جديد، وبعدما أنهت وضع الحناء على يديّ الاثنتين، دفعت لها الأجر، وشكرتها بلباقة على عملها المتقن، ثم ذهبت أبحث عن «أحمد» و«بلال» في وسط الساحة.

بعد بحث مضنٍ عنهما، وبعد أن طفت بعدة حلقات بالساحة، وجدتهما أخيرًا، يشاهدان عرضًا بهلوانيًّا، تسللت وسط الزحام، حتى تمكنت من الوقوف بصعوبة بجانب "بلال"، الذي ما أن رآني حتى استدار لمعانقتي، وهو يقول: «ماما.. اشتقت إليك».. رفعت يدي إلى الأعلى حتى لا تلتصق الحناء بملابسه، أو يفسد شكلها الجميل، ثم عانقته.. لما سمع «أحمد» صوتي التفت إليّ، وقال مبتسمًا: «بصحتك»، أجبته وقد سددت إليه نظرات غاضبة، وتغيرت ملامح الفرح على وجهي إلى حزن ظاهر: «عن أي صحة تتحدث، وقد أفسدت عليّ فرحتي بهذه الحناء؟!»

نظر إليّ مستهجنًا تصرفي، وقال: «وماذا فعلت لك بحق السماء؟!»

قلت وأنا أشير إلى الثعابين الموضوعة بالساحة: «لماذا حملت ذلك الثعبان حول عنقك؟ لقد أرعبتني، وكاد قلبي ينفطر، لم أكن أتخيل يومًا أن تحمل الثعبان وأنت تعلم كم أرتعب منه! ماذا لو لسعك؟ ما كنا سنفعل ساعتها؟!»

ردَّ مدافعًا عن نفسه: «لا لن يفعل ذلك، فهو مروض بطريقة احترافية، كما أنه منزوع السم، حتى لا يؤذي أحدًا، ولم يسبق لأحد

من السياح أن تأذى؛ فهذا عملهم اليومي بالساحة لسنوات طويلة، لا يمكنهم أن يغامروا بشيء فيه خطورة على الناس...» في هذه الأثناء أشار "بلال" إلى العربات المصطفة خارج الساحة والمختصة ببيع العصائر، ثم قال: «أريد أن أشرب العصير»، فأخذناه إلى هناك وشربنا عصير البرتقال جميعًا صامتين.

لفظت الشمس أنفاسها الأخيرة، وبدأ الظلام يرخي بسدوله على المكان، اتجهنا صوب المطاعم المفتوحة بالساحة، تناولنا حساء "الحريرة" مع بعض من رطب التمر و"الشباكية" (وهي حلوى معسلة مرشوشة بالسمسم)، ثم عدنا أدراجنا إلى الفندق.

كانت ليلة شديدة البرودة، حالكة الظلام، أحسست فيها بإرهاق كبير، وألم شديد في رأسي، عندما وصلنا إلى الفندق اتجهت إلى الحمام مباشرة، توضأت وصليت، ثم خلدت إلى النوم لأنعم بقسط من الراحة، لكن للأسف الشديد؛ فليلتي هاته لم تكن ليلة عادية أبدًا، بل كانت من أصعب الليالي التي عشتها، فذلك الموقف الذي حدث لي خلال النهار، ظل يطاردني في الحلم طيلة الليل، بقي ملتصقًا بعقلي، ومؤثرًا في نفسيتي، إلى حد لا يوصف، فما رأيته هذه الليلة لم يكن مجرد حلم، بل كابوسًا حقيقيًّا لن أنساه طيلة حياتي.

لقد رأيت أننا كنا نتجول في تلك الساحة نفسها، ساحة «جامع لفنا»، لكن هذه المرة كان معنا أبي وأمي أيضًا، كنا نشاهد جميعنا الحلقات الموجودة هناك، وننتقل من واحدة إلى أخرى، ونحن مستمتعون للغاية، كان المكان مكتظًا بالمتفرجين كعادته كل مساء، وفجأة غشي الساحة ظلام شديد، فلا بصيص من نور في السماء، وبينما نحن نشاهد أحد العروض البهلوانية المدهشة، فإذا بنا نرى الناس تصرخ بأعلى صوتها وتركض على غير هدى، وفي كل الاتجاهات، وقد ارتسمت على وجوههم علامات الذعر والخوف. توقفت أصداء الموسيقى، وعلا الصراخ في كل مكان، وساد الهرج والمرج، كل الحلقات قد تفرقت، وعمت الفوضى في الأرجاء.

في البداية لم نفهم سبب كل ذلك، بدأنا نستفهم بعض الناس، ولكن لا من مجيب، فالكل كان يفر، الكل يريد أن ينجو بنفسه من شيء مرعب هناك، شعرنا بالذعر، فبدأنا بدورنا نركض، مع أننا لا ندري مصدر الخطر، إلا أننا كنا نسمع أصواتًا مخيفة كالحفيف تقترب منا شيئًا فشيئًا، وفجأة لمحنا ما لم نستطع تصديقه، فالأفاعي والثعابين التي كانت بالساحة قد أصابها الجنون، وقد كبر حجمها فصارت شبيهة بالتنانين، كانت ترفع رأسها إلى الأعلى، ثم تضرب به كل من تصادف أمامها.

كان المنظر مرعبًا حقًّا، لقد أصابنا الهلع والخوف، وأخذنا نركض مبتعدين.. كنت أمسك بيد ابني "بلال" وأركض، وأحاول أن أجره معي بسرعة رغم خطواته الصغيرة، كنت أحاول أن أركض في كل اتجاه ركض نحوه زوجي وأبي، حتى لا أتوه عنهما، وحتى أحتمي بهما أيضًا، المشكلة في أن عدد الأفاعي كان كبيرًا جدًّا، لدرجة أننا كنا نراها تزحف في كل مكان بالساحة، وبينما نحن نركض كنا نتعثر بالناس المرتمية على الأرض.. بعضهم كان يتلوى من الألم، وبعضهم قد سقط مغشيًّا عليه. كنا نجري ونصرخ من شدة الهلع، وكل فرائصنا ترتعد من الخوف. بدت تلك اللحظات جحيمًا لا ينتهي، وكان ابني "بلال" يبكي بشدة وهو يصرخ: «بابا!، ماما!»، وكانت أمي تتمتم ببعض الأدعية وهي تلهث جزعة، وكنت أنا بدوري أصرخ داعية: «رحماك يا الله!»، «احفظنا يا الله!»

وبينما كنا نجري لنخرج من الساحة، فإذا بأفعى عملاقة تحاصرنا، وقد مدت رأسها الكبير أمامي مباشرة، كان لسانها الأحمر يرقص في وسط فمها، وعيناها الحمراوان تشعان بلون الدم تحت الأضواء الخافتة، صرخت بكل ما أوتيت من قوة، وبعدها تجمدت مكاني، وكأنما أصابني الشلل، كنت أمسك بيد ابني "بلال" وأنا أرتجف، بدأت تقترب مني أكثر فأكثر، أحسست أنها النهاية، صرخ «أحمد» مرتعبًا،

وقد اتسعت عيناه من هول الموقف: «إنها تريد أن تنقض على أحد منا لا محالة»، فجأة تقدم والدي "مصطفى" بكل شجاعة أمامي في مواجهتها، وبدأ يلوح بكلتا يديه حتى يخيفها، ويصدها عن أذيتي، وفجأة اشتد غضبها، وأصدرت فحيحًا قويًّا تردد صداه في الساحة، ثم انقضت على إحدى يديه، ولدغتها، ثم زحفت في اتجاه آخر مبتعدة، صرخ أبي من شدة الألم، وصرخنا جميعنا معه، ركضنا نحوه، نمسك به بعد أن كاد يسقط على الأرض، كان ممسكًا بيده وهو يتلوى من شدة الألم، وبعد دقائق قليلة فقد الوعي نهائيًّا.

في هذه الأثناء سمعت «أحمد» زوجي يوقظني وهو يربت على ذراعي: «زينب»! «زينب»! استيقظي، هيا قومي لتصلي؛ فقد حان وقت صلاة الفجر!

فتحت عينيّ وأنا أرتعد من الخوف، كان قلبي يدق بسرعة جنونية، ووجهي قد تصبب عرقًا رغم برودة الجو، بدأت أجول ببصري بنظرات مرتعبة في الغرفة المضاءة، أبحث عن والدي، وأتفحص وجه زوجي، وأنا أدعك عينيّ بيدي الاثنتين غير مصدقة أنه مجرد حلم، إذن فنحن بالفندق ولسنا بالساحة، ووالدي لم يأت معنا لهذه الرحلة، إذن هو مجرد حلم بغيض، بل من أصعب الكوابيس التي رأيتها في حياتي،

تنهدت الصعداء وأنا أضع يدي اليمنى على قلبي الذي كاد أن ينفطر من الخوف، ثم همست قائلة: «الحمد لله، الحمد لله».. جلست على السرير استجمع أنفاسي، تذكرت أنني طلبت من أبي وأمي أن يرافقانا في هذه الرحلة لكنهما رفضا، لأن أبي ملتزم بعمله بالشركة، بينما أمي رفضت، لأنها لا تستطيع ترك والدي وحده، فهو لا يحب الأكل إلا من يدها، ولا يروقه الأكل خارج المنزل، حفاظًا على صحة معدته.

سألني زوجي مستغربًا: «ما بكِ؟! هل كنتِ تحلمين؟»، سكت وهو ينظر إليّ، ثم أضاف:

«لقد سمعتكِ وكأنك كنتِ تبكين، وتصدرين أصواتًا مثل الأنين»، قلت وأنا مرتبكة وحالة الخوف ما زالت سارية علي: «أجل كنت أحلم، لقد رأيت كابوسًا مخيفًا جدًّا، رأيت أن الأفاعي والثعابين بالساحة قد تحولت إلى تنانين، وصارت تلاحقنا، وقد أصابت والدي والعديد من الناس، حتى السياح الأجانب أيضًا»، صمتُّ لأبتلع ريقي، ثم أضفت وأنا أمسك رأسي بكلتا يدي، حتى أوقف عقلي عن التفكير في ذلك مجددًا: «لم أعد أريد تذكر ذلك مرة أخرى، إنه مرعب حقًّا».

قال زوجي ثم استدار لينصرف: «لربما هي كوابيس من الشيطان، هيا، استعيذي بالله من الشيطان الرجيم، وقومي لتصلي الفجر!»

قلت: «حسنًا، هذا ما عليّ فعله».

قمت من السرير، وما زالت صورة الأفعى وهي تنقض على أبي تتردد في مخيلتي كأسطوانة، ولم تفارقني إلا عندما شرعت في الصلاة.

عندما أنهيت صلاتي، خاطبني أحمد قائلًا: «لقد حان وقت عودتنا إلى المنزل، حاولي أن تجمعي الحقائب، واستعدي للرحيل».

أيقظت ابني "بلالًا" وارتدينا ملابسنا، ثم لحقنا بـ«أحمد» الذي كان يسلم مفاتيح الفندق، وركبنا السيارة بعدها عائدين أدراجنا إلى «الدار البيضاء».

الفصل الثاني

(الأحد 15 مارس 2020)

ها أنا ذي أعود مكرهة وعلى مضض إلى مدينة «الدار البيضاء»، مسقط رأسي، ومحل سكناي وسكنى عائلتي، كم أعشق الخروج والسفر!، وأكره لحظة العودة بشدة، كنت أتمنى أن نقضي وقتًا أطول هناك، لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، فاليوم هو آخر يوم في عطلة منتصف السنة الدراسية، وغدًا ستستأنف الدراسة بالنسبة لابني «بلال».

خرجنا مع بزوغ خيوط الفجر، بدأت أتأمل الشوارع التي ما زالت تغرق في العتمة، رغم بعض أعمدة المصابيح المعلقة، وبعض لافتات المحالّ التجارية المضاءة، شعرت أنني ما زلت بحاجة إلى النوم، فعدت برأسي إلى الوراء لأتوسد مقعد السيارة، ثم ذهبت في نوم عميق، كنت أفتح عيني كلما اهتزت السيارة في الطريق، ثم أعيد إغلاقهما من

جديد، ولم أستيقظ إلا عندما أوقف زوجي السيارة بإحدى باحات الاستراحة.

انتفضت في مكاني وفتحت عيني وأنا أفركهما بيدي لأطرد عنهما النوم، لاحظت أن أشعة الشمس الدافئة قد تسللت إلى السيارة، التفت إلى زوجي وسألت بلهجة متثاقلة: «كم الساعة الآن؟ وأين وصلنا بالتحديد؟»

قال أحمد: «إنها التاسعة وخمس عشرة دقيقة» ثم استطرد وهو يسأل: «ألا تعلمين حقًّا أين نحن؟»

قلت وأنا أنظر من زجاج السيارة إلى الأراضي الفلاحية الممتدة على مد البصر، على شكل لوحة فنية تأخذ الأنفاس: «لا لا، لا أعلم أين!»،

قال ضاحكا حتى فرج عن طقم أسنانه: «لقد وصلنا إلى أرض أجدادك، وصلنا إلى إقليم" سطات "، هيا فلتضايفينا عند أحد من عائلتك الكريمة هنا، فكثيرًا ما نسمع أنكم بلاد الجود والكرم».

أجبته مبتسمة: «أتمزح معي، أم ماذا؟! أنت تعلم أنه لم يعد لنا بهذه الأرض ولو شبر واحد، صحيح أن جذوري العائلية من هنا، لكن

وللأسف الشديد، وبعد وفاة جدي –رحمه الله–، باعت عائلتي كل ما تبقى من الأرض، وهاجروا إلى «الدار البيضاء»، استطردت قائلة: «هيا فلتأخذنا لتناول الفطور، إننا نتضور جوعًا حقًّا، وليس هناك أفضل منك ليضايفنا الآن»، ابتسم ثم قال: «هيا، أيقظي "بلالًا" والحقا بي إلى المطعم».

انحنيت برأسي إلى الأمام لأنزع حزام الأمان، فشعرت بألم شديد في رقبتي من كثرة النوم على المقعد، حركت رأسي يمنة ويسرة، وقمت ببعض الحركات الرياضية، ثم خرجت من السيارة، فتحت الباب الخلفي، وأنا أنادي على "بلال" ليستيقظ، كان هو الآخر يفتح عينيه ويعيد إغلاقهما، قلت متسائلة: «ألست جائعا يا بلال؟ هيا لنتناول الفطور!»

هز كتفيه بالرفض وعاد ليغمض عينيه وهو يقول: «أرجوك أمي، اتركيني لأنام!». قلت له: «لقد ذهب والدك إلى المطعم، وسأذهب أنا أيضًا، ولا أريد أن أتركك وحدك بالسيارة، انظر!، هناك الكثير من الألعاب الترفيهية هنا»، وفور أن سمع كلمة "ألعاب"، فتح عينيه عن آخرهما، ورفع رأسه ينظر من زجاج السيارة، وفجأة رأيته وقد استقام

جالسًا، ثم قفز خارجًا وهو يركض في اتجاه الألعاب، أغلقت باب السيارة، ولحقت به وأنا أبتسم لردة فعله تلك.

وماهي إلا دقائق قليلة، حتى فوجئت به يتراجع إلى الوراء حزينًا، وقد أوشك على البكاء، سألته مستغربة: «ما بك يا بلال؟!»، أجابني وهو يشير إلى سور خشبي محاط بالألعاب، وقد وضع ببابه قفل محكم الإغلاق، وقال: «إنه مغلق يا أمي»، نظرت إلى الباب الخشبي ورأيت علامة المنع قد رُسمت عليه بصباغة حمراء مكتوب في وسطها ممنوع الدخول، رفعت رأسي وقرأت إعلانًا عُلِّق على سور الحديقة مكتوب عليه أيضًا: «نخبر زبائننا الكرام أنه يُمنع الدخول لفضاء الألعاب تفاديًا للعدوى بفيروس كورونا المستجد، ونرجو السلامة والعافية للجميع -إن شاء الله-»، قلت له محاولة التخفيف من روعه: «لا تحزن، فقد أغلقوها حتى لا يُصاب الأطفال بأحد الأمراض الخطيرة المعدية، سآخذك لتلعب بحديقة أخرى -إن شاء الله-»، ثم أمسكت بيده وأنا أقول: «هيا لنلحق بوالدك، فقد جئنا إلى هنا فقط من أجل تناول الفطور».

عند مدخل باب المطعم، استوقفنا حارس الأمن بالباب، كان يحمل في يده جهاز قياس الحرارة على شكل مسدس، وطلب أن يقيس لنا

الحرارة قبل الدخول، فوافقت على ذلك، فصوب الجهاز نحو جبهتي مباشرة، أحسست بارتعاشة تسري في جسدي رغم أن الأمر بسيط جدًّا، ولا يكاد المرء يحس به، بعد ثلاثة دقائق تقريبًا، أصدر الجهاز صوتًا ليدل على انتهاء عملية الفحص، ففعل نفس الأمر مع "بلال"، ثم أشار لنا بيده إلى جهاز التعقيم الموضوع على يمينه بباب المدخل، وهو جهاز حديدي طوله مترٌ تقريبًا، وعرضه نحو 10 سنتيمترات، له زر بالأسفل يُضغط بواسطة أصابع القدم، وبه أنبوب بلاستيكي من الأعلى، لصب المحلول المعقم، صُمم خصوصًا لتفادي عدوى الفيروس، كُتبت عليه طريقة الاستعمال، إضافة إلى مجموعة من التعليمات الوقائية من فيروس كورونا المستجد، عقمت يدي ومسحتهما بمنديل ورقي، وكذلك فعل «بلال»، ثم دلفنا إلى الداخل.

اتجهنا إلى الطاولة التي جلس عليها «أحمد»، ملت برأسي نحوه وأنا أسأل ساخطة: «ما كل هذه الإجراءات هنا؟!»

أجاب وهو يرفع عينيه من على الهاتف: «إنها بسبب وباء كورونا، الذي دخل بلادنا الأسبوع الماضي، وأعلنت الدولة عن وجود حالتين مصابتين به» أضاف وهو يشير إلى شاشة هاتفه المحمول: «كل الجرائد

الوطنية تصرح بأن عدد الإصابات بذلك الفيروس قد تجاوزت الآن مئتي إصابة».

قلت مندهشة: «يا إلهي! في ظرف أسبوع فقط ارتفع عدد الإصابات إلى هذا الحد!! هذا يعني أنه سريع الانتشار». قال «أحمد» مؤكدًا: «أجل إنه كذلك».

قلت حانقة: «إني أستغرب لأمر هذا الفيروس، رغم أنه ظهر في الصين التي تبعد عن بلادنا آلاف الكيلومترات، هي في الشرق ونحن في الغرب، ومع ذلك وصل إلينا بهذه السرعة!!»

قال: «أجل، فالهجرة من بلد إلى آخر، كانت سببًا أساسيًّا في انتشار هذا الفيروس على نطاق واسع، وتحوله إلى وباء، خصوصًا أنه ظهر تزامنًا مع الاحتفالات برأس السنة الميلادية الجديدة، وسفر عديد من الناس نحو بلدانهم وهجرتهم، فكل بلدان العالم الآن قد طالها هذا الوباء بصورة أو بأخرى، وكل دولة تحاربه بكل ما استطاعت من قوة».

قلت: «شاهدت في الأسبوع الماضي على اليوتيوب أن هناك العديد من الناس لا يصدقون بوجوده، ويعتقدون أنه مجرد مؤامرة، أو

سياسة محبوكة من بعض الدول الصناعية الكبرى للترويج لمخزونها من الدواء واللقاحات عبر العالم».

قال مستهجنًا كلامي: «يجب ألا تصدقي كل ما يُقال على وسائل التواصل الاجتماعي، وأن تأخذي الأخبار من مصادر موثوقة، إنه فعلًا وباء خطير، ينتشر بسرعة كبيرة، وعدد الإصابات به ترتفع بشكل صاروخي، وإذا كان مجرد كذبة، فكيف سنفسر ذلك العدد المهول للمصابين الذين امتلأت بهم المستشفيات، وكذلك الموتى الذين امتلأت بأجسادهم المقابر؟!»

أضاف أحمد موضحًا: «الأوبئة موجودة منذ الأزل، ولا يمكن لأحد إنكارها، هم لا يؤمنون بوجود هذا الفيروس لأنهم بمنأى عنه، لم يصب منهم أحد قريب، ليروا بعيونهم المجردة مدى قساوته، ألم تشاهدي على القنوات الفضائية ما يحدث في كثير من بلدان العالم الآن؟ حياتهم أصبحت جحيمًا، انهارت كل نظمهم الصحية رغم قوتها أمام سطوته».

قلت: «نعم لقد سبق أن شاهدنا ذلك معًا، ولا أنكر وجوده وخطورته أبدًا، فقط كنت أخبرك بما سمعت، فقد سبق أن قرأنا بكتب

التاريخ القديم عن أوبئة أشد خطورة عرفها أجدادنا في الماضي كالطاعون والجدري وغيرهما...»

نظر إليّ بقلق بعدما رفع رأسه من على الهاتف وقال: «هناك خبر بكل الجرائد الوطنية يقول بأن الدولة قد فرضت ارتداء الكمامة، والالتزام بالتباعد الاجتماعي (مسافة متر تقريبا)، على جميع المواطنين، كإجراءات وقائية ابتداء من هذا اليوم».

قلت: «أجل، لقد لاحظت ذلك، فالجميع هنا يرتدي الكمامة على وجهه، حتى الموظفون بالمطعم».

قلت مستطردة: «يجب أن نشتري الكمامة، كي نرتديها نحن أيضًا، ما دام ارتداؤها أضحى مفروضًا».

قال أحمد موافقًا: «سأعرج على الطريق الوطنية وأشتريها –بحول الله–»،

قلت متسائلة: «وهل الأطفال أيضًا مُلزمون بارتداء الكمامة؟»،

أجاب: «فقط الأطفال الذين تتجاوز أعمارهم اثنتي عشرة سنة»،

قلت متنهدة: «إذا فابننا "بلال" غير ملزم بارتدائها؟»،

أجابني موافقًا: «أجل، هو غير ملزم بذلك، فعمره لم يتجاوز ثماني سنوات، غير أنه يجب أن يعقم يديه باستمرار»،

قلت موضحة: «نعم، كلنا الآن ملزمون بالتعقيم، واتباع الإجراءات الاحترازية لتفادي عدوى هذا الفيروس الخطير».

«انظري»، قالها وهو يشير إلى خبر جديد على شاشة الهاتف المحمول، نظرت إلى الخبر، وبدأت بالقراءة: «تُفرض غرامة مالية قدرها 300 درهم على كل شخص لا يرتدي الكمامة، سواء بالشارع أو على الطريق السيار، كما صرح وزير الصحة بأن الكمامات متوفرة وبأعداد كبيرة في جميع الصيدليات، والمتاجر الكبرى والصغرى، وبأثمنة جد مناسبة، حتى أن بلادنا بدأت بتصدير الكمامات للعديد من الدول الأجنبية، التي وصل بها الوباء لأعداد مهولة كإيطاليا وإسبانيا وفرنسا».

رشفت آخر جرعة من الشاي، ثم وضعت الكأس على الطاولة وأنا أقول: «إذن هيَّا بنا لنشتريها الآن.. أخشى أن توقفنا الشرطة بالطريق».

بعد لحظات قليلة، ركبنا السيارة مستأنفين طريق العودة إلى المنزل، عرج «أحمد» على الطريق الوطنية، كنت أنظر من زجاج النافذة إلى الأراضي الزراعية، بألوانها الشتوية المختلفة، أُعجبت بتلك المناظر الخلابة التي تبهر العين وتأسر القلب بجمالها، أحسست براحة نفسية كبيرة حيث الهدوء والسكون، المغيبان عن حياتنا بالمدينة.

وصلنا إلى إقليم برشيد، فتوقف «أحمد» أمام أحد المتاجر الكبرى، بقيت أنا و«بلال» بالسيارة، في حين ذهب هو إلى متجر مُطلّ على الشارع، مرت نصف ساعة تقريبًا ونحن ننتظر، لكنّ «أحمد» لم يعد، كنت أرى الناس يدخلون بأعداد كبيرة، ويخرجون منه وهم محملون بسلع وبضائع كثيرة، يجرونها في سلل كبيرة ذات عجلات رباعية، ثم يضعونها في سياراتهم الفاخرة، قلت في نفسي: «لا بد أنهم أناس أغنياء ليشتروا كل هذه السلع والبضائع دفعة واحدة»، لم أفهم ماذا يجري هناك! ولا لمَ تأخر «أحمد» كل هذا الوقت!

قررت بعدها أن أذهب وأستكشف الأمر بنفسي، بعد أن طلبت من "بلال" أن ينتظر بالسيارة، وأن يتسلى بالألعاب الإلكترونية على الهاتف، نزلت من السيارة وصعدت الدرج حتى وصلت إلى الباب الزجاجي اللاسلكي، الذي ما أن اقتربت منه، حتى فُتح على

مصراعيه تلقائيًّا، فأُصبت بدهشة عارمة، لذلك الكم الهائل من الناس بداخل المتجر، كانوا يتهافتون بطريقة جنونية على السلع والمواد الغذائية، ومواد التنظيف والتعقيم، لدرجة أصبحت معها العديد من الرفوف فارغة تمامًا، كان الازدحام شديدًا، وكأن المتاجر لن تفتح بعد اليوم أبدًا، فكرت أن أعبر إلى الداخل، لكن الأمر صعب جدًّا، بدأت أوزع نظراتي على المكان باحثة عن «أحمد» زوجي وسط الزحام، حتى عثرت عليه بصعوبة وسط طابور طويل أمام أحد صناديق الدفع، ناديت باسمه، فلم يسمعني للوهلة الأولى، لأن المكان كان يعلوه الضجيج والهرج والمرج، فرفعت صوتي أكثر، حتى تمكن من سماعي ورؤيتي، رفعت يدي وأشرت إليه بها إلى الساعة، كدليل على أنه قد تأخر، فأشار إليّ هو الآخر بثلاثة من أصابع يده اليمنى، إلى الطابور أمامه، ففهمت منه أنه لم يتبق إلا ثلاثة أشخاص أمامه ثم ينتهي، فأشرت له بيدي اليمنى بأنني سأخرج، فحرّك رأسه موافقًا ثم خرجت.

بعد عشرة دقائق تقريبًا خرج من المتجر وهو يحمل في يده كيسًا كبيرًا، به علبة كمامات، وقنينات صغيرة بلاستيكية خاصة بمعقم اليدين، وقنينة ماء كبيرة وبعض العصائر، وقطع من الحلوى، سألته بعد أن ركب السيارة: «ماذا هناك؟ لمَ كل ذلك الازدحام؟»، أجاب غاضبًا: «هناك إشاعة تقول بأن الدولة ستفرض غدًا ما يسمى

بـ«الحجر الصحي» على كل أنحاء المملكة للحد من انتشار الوباء»، توقف برهة، وفتح قنينة الماء وسكب منها جرعة كبيرة في فمه، تنهد ثم استطرد قائلًا: «آه، لقد تصببت عرقًا بسبب ذلك الازدحام»، قلت وأنا مصدومة مما أسمع: «وماذا يعني ذلك؟»، أجاب موضحًا: «يعني أنه إذا فُرض الحجر الصحي فعلًا، فسيُفرض الإغلاق على كل شيء؛ على الناس، والمتاجر والأسواق، أي أن الحركة ستتوقف بالخارج نهائيًّا».

قلت له: «وهل هذا الأمر مؤكد، أم أنه مجرد إشاعة؟»،

أجاب وهو يدير محرك السيارة: «البعض يقول إنها أخبار مؤكدة، والبعض الآخر يقول إنها ليست بحقيقية، فليست هناك أخبار رسمية حتى الآن، سننتظر حتى نسمع ذلك بنشرة الأخبار -إن شاء الله-»،

قلت مبدية رأيي: «من جهتي أستبعد ذلك، فلا يمكن أن نُسجن في المنازل بدون طعام، ولا يمكننا أن نبقى بدون عمل»، توقفت برهة ثم استطردت: «وماذا عن التلاميذ، ألن يذهبوا إلى المدارس غدًا؟!»

رد مستهجنًا سؤالي: «لا أدري ماذا سيحصل؟!، الله وحده أعلى وأعلم».

فتحت علبة الكمامات، وأخرجت منها كمامتين بلون أزرق فاتح، سلّمت زوجي واحدة وارتديت أنا الأخرى، نظرت في المرآة، وأنا أضع خيطها الأستيكي خلف أذني، لم أستحسن شكلها على وجهي، وشعرت وكأنني أختنق، فقلت: «أيمكنني نزعها إذا أحسست بالاختناق؟»، رد زوجي ضاحكًا: «لم تضعيها إلا دقيقة واحدة وتريدين نزعها الآن !»، سكتَ ثم أضاف منبها: «عليكِ أن تستحملي وضعها، فارتداؤها أضحى مفروضًا، شئتِ أم أبيتِ، حتى تحمي نفسك من العدوى، وتحمي الآخرين من حولك، إضافة إلى أنني لست مستعدًّا لدفع ثلاثمئة درهم كغرامة مالية على ذلك الآن»،

قلت مستسلمة: «حسنًا، سأحاول تحملها والاعتياد عليها، وأسأل الله أن يرفع عنا هذا الوباء سريعًا، حتى أرتاح منها نهائيًّا»،

رد زوجي قائلًا: «آمين يا رب، المهم هو سلامتنا جميعًا، أما هذه الأمور فستنتهي عاجلًا أو آجلًا، فما علينا إلا الصبر والدعاء، يجب أن تعلمي أن هذه الإجراءات الآن أضحت سارية على الجميع بالبلاد، وحتى بدول العالم الأخرى، فقد سبق لي أن شاهدت الناس يرتدونها على قناة الجزيرة الإخبارية بالعديد من الدول كالصين

وإيطاليا وأمريكا منذ شهور، لأن الوباء كما تعلمين مر على ظهوره ثلاثة أشهر أو أكثر قبل أن يصل إلينا».

وصلنا أخيرًا إلى مركز مدينة الدار البيضاء، حيث المحالّ التجارية المكتظة بالزبائن، واللوحات الإشهارية في كل مكان، والمقاهي ممتلئة عن آخرها، والطرق والشوارع مزدحمة بدرجة لا تُطاق، كان في كل شارع رئيسي تقريبًا يقف شرطي المرور، ينظم حركة السير، وكانت هناك أيضا شرطة للمراقبة، تراقب مدى احترام السائقين للسرعة، وارتداء حزام الأمان، إضافة إلى ارتداء الكمامة.

اقتربنا من الحي الشعبي الذي نسكنه، وهو حي شبه حضري، يوجد على هامش مدينة الدار البيضاء، كان الحي في الأصل عبارة عن أرض فلاحية، حُوِّلت فيما بعد إلى مشروع سكني لإعادة إيواء ساكنة أحياء الصفيح، كانت قد انتقلت عائلتي للسكن به، بعد ترحيلهم من أحد الدواوير القديمة بالمدينة، فعلى الرغم من أن الحي أُنشئ حديثًا، فإنه يبدو بائسًا قصيًّا ومغتربًا عن مركز المدينة، ليس فيه ما يرى أو يعجب، ليس به إلا منازل أشبه بصناديق مصطفة ضيقة المساحة، أغلب جدرانها بدون طلاء، وبدون أي حدائق تُذكر، وقد تجد بعضها بدون نوافذ حتى، حيث معظمها مغطى فقط بقماش مهترئ أو بقطع

من البلاستيك، لدرء الرياح والأمطار، فمعظم سكانه يعانون أشد حالات البؤس والفقر وقلة العمل.

أما شوارعه وأزقته فهي غير معبدة إطلاقًا، ففيما عدا الشارع الرئيس المرصوص، تجد أغلب الأزقة والشوارع الفرعية به غير مرصوصة وبدون بلاط، غبارها يتطاير عاليا باستمرار، وخصوصًا في الصيف، أما في الشتاء فالوضع مخزٍ جدًّا؛ كل من يراه لا يصدق أبدًا أن حيًّا مثلَه موجود بأكبر مدينة اقتصادية في البلاد، لا يعلم المرء فيه مِن أين يسلك ماشيًا! وخصوصًا ملتقى الطرق المؤدي إلى السوق، الذي يستحيل قطعه دون أخذ نصيب من الوحل، الذي غالبًا ما يعلق بالأحذية أو الملابس، فإذا أمطرت الأمطار فإن الطريق تتحول إلى برك ومستنقعات، تصبح فيما بعد ذات روائح كريهة تزكم الأنوف، حيث تختلط رائحة مياه السمك المتسربة من الصناديق المعروضة بالسوق، مع رائحة روث الأحصنة والبغال والحمير؛ لأن وسيلة النقل بهذا الحي هي خليط بين ما هو قروي كـ"الكرويلة" (عربة يجرها حصان)، و"موتور الشينوا" (دراجة نارية ثلاثية العجلات)، وبين ما هو مدني كالحافلات وسيارات الأجرة.

وأغلب سكان الحي من أصول بدوية، وما زال يغلب عليهم هذا الطابع القروي رغم عيشهم بالمدينة لسنوات عديدة، وعلى الرغم من كل هذه المساوئ، فإني أحب العيش في هذا الحي، والسبب الأول لهذا الحب هو أن والديّ يسكنان به، إضافة إلى أن سكانه طيبون جدًّا، ومتعاونون إلى درجة كبيرة، يدعم بعضهم بعضًا في الشدة والرخاء، وقلَّما أصبحنا نرى هذا مجتمعنا، مثل هذه المعاملات الطيبة التي افتقدها الكثيرون بالمدينة، كما أنني لم أحتمل البعد عن عائلتي، فمنذ صغري وأنا شديدة التعلق بوالدَيّ، كنت أنا ابنتهما الصغيرة المدللة، وعندما تزوجت، وانتقلت للسكن مع زوجي بمدينة «مراكش»، لم أعتد السكن وحدي أبدًا، فكنت كلما تذكرتهما أذرف الدموع مدرارًا.. أشتاق لأبي الحنون، وأحاديثه الشيقة، وأشتاق لأمي الحبيبة الغالية، وأكلاتها اللذيذة التي لا مثيل لها، فطلبت من زوجي أن ننتقل للعيش بالقرب منهما، حتى أراهما وقتما أشاء، وكلما أردت ذلك، ولم يتحقق طلبي هذا إلا بعد مرور أربع سنوات تقريبًا، حيث صرت أسكن الحي نفسه معهما، لا تفصل بيننا إلا بضعة كيلومترات قليلة فقط.

بعد أن وصلنا للحي، وتوغلنا بالسيارة ببعض أزقته، طلبت من زوجي أن يتوقف عند منزل والديّ لنزورهما، ونرتاح عندهما قليلًا،

قبل الذهاب إلى المنزل، تذكرت أن اليوم هو الأحد، فهتفت بحماس: «لا بد أن أبي قد ذهب إلى سوق " اللويزية" الأسبوعي بضاحية مدينة "المحمدية"، فهو لا يفوت زيارته أيام الآحاد أبدًا» قال أحمد: «ربما، فهو يحب الذهاب إليه كثيرًا»، سمع «بلال» حديثنا، فهتف قائلًا: «نعم أحب الذهاب عند جدي وجدتي»،

ضحكت قائلة: هل اشتقت إليهما، أم اشتقت إلى الحلوى والسكاكر؟!»،

طأطأ رأسه خجلًا، وقد علت وجهه حمرة، فقال أحمد: «لقد أحرجتِه»، قلت وأنا أبتسم: «كنت أمازحه فقط، فأنا أيضا أحب زيارتهم وخصوصًا أيام الآحاد والعطل، لأقضي معهما أطول وقت ممكن».

بعد لحظات قليلة كنا عند الباب، قال «أحمد» بعد أن أوقف السيارة: «الحمد لله على السلامة، لقد وصلنا».

كان المنزل مكوَّنًا من ثلاثة طوابق: الطابق الأول يسكنه والداي، والثاني يسكنه الجار الشريك في البقعة السكنية مع والدي، والطابق الثالث يسكنه أخي الأكبر «عصام» مع زوجته وأبنائه.

نزلت من السيارة واتجهت نحو الباب الحديدي ذي اللون الأسود الذي وجدته مغلقًا، ضغطت على جهاز الانترفون، فأجابني صوت ابن أختي "سعد" ذي العشر سنوات، الذي ما أن سمع صوتي حتى فتح الباب وهو يهتف: «لقد جاءت خالتي! لقد جاءت خالتي!».

صعدنا السلم، عندما وصلنا إلى الباب، وجدناه مفتوحًا، وقد وقفت أختي «وفاء» وابنها «سعد» في استقبالنا وهما يبتسمان.. سلما علينا، ثم أخذ «سعد» بيد «بلال» نحو الغرفة ليلعبا معًا.

دلفنا إلى الصالة، فخرجت أمي من المطبخ مبتسمة وهي تقول: «مرحبًا، الحمد لله على سلامتكم»، فسلمنا عليها، ثم جلسنا بغرفة الجلوس.

نادت أمي على «سعد»، وطلبت منه أن يذهب ويخبر أخي «عصامًا» بقدومنا، سألتها عن والدي، فأجابت ضاحكة: «إنه بالسوق الأسبوعي كعادته، فهو لا يستطيع أن يفوت هوايته المفضلة»، ضحكت من كلامها، لأني أعلم مدى شغف والدي بالأسواق الأسبوعية، رغم أننا نسكن بالمدينة لسنوات طويلة، فإنه ظلَّ محافظًا على عادة آبائه وأجداده.. فرغم تعبه بالعمل طيلة الأسبوع بالشركة، ورغم تقدمه في السن وتجاوزه الستين عامًا، إلا أنه

يستيقظ باكرًا كل يوم أحد، ويحمل القفة، ثم يركب دراجته النارية، وينطلق إلى السوق بكل نشاط وحيوية.

جاء أخي «عصام»، الذي يعمل أستاذًا بإحدى المؤسسات التعليمية بالحي، وسلم عليَّ، ثم دخل إلى غرفة الجلوس حيث كان يجلس «أحمد»، وسلم عليه أيضًا، ثم جلس يسأله عن الرحلة.

رأيت أمي تدخل المطبخ مع أختي «وفاء»، فلحقت بهما، كانت أمي تعد الكسكس، حيث افترشت بساطًا مزركشًا تقليديَّ الصنع، ووضعت أمامها قصعة طينية من الحجم الكبير، وسكبت فيها السميد الساخن، ثم رشته بالماء والملح وهي تمسح عليه، بأنامل يديها الاثنتين فتضع الواحدة وترفع الأخرى، كما لو كانت تسبح، ثم بدأت في فك حبات السميد، حتى لا تلتصق ببعضها، ثم رشته بقطرات من زيت المائدة، وهي تسألني: «كيف كانت رحلتكم؟»، قلت وأنا أتابع عملها بنظراتي: «كانت رائعة وممتعة، تأسفت كثيرًا لعدم ذهابكما معنا أنت وأبي، لقد زرنا منطقة "ستي فاطمة" الجبلية، وذهبنا إلى "اوكايمدن" واستمتعنا بالتزحلق على الثلوج»، سألتني أختي وهي تنظف الصحون: «وهل زرتم ساحة "جامع الفناء"»؟ أجبتها مبتسمة: «أجل، كنا نزورها كل مساء».

قالت: «إنها تعجبني كثيرًا، بها جو رائع لا مثيل له وخصوصًا في الليل، ومهما تردد الإنسان عليها، فلا يملها أبدًا»، قلت لها: «نعم كلامك صحيح».

في هذه الأثناء تذكرت صورة «أحمد» مع الثعبان فأخبرتهما عنها، وعمَّا أصابني من خوف وذعر حينها، ثم ذهبت وأحضرت هاتفي وهاتف «أحمد»، وأريتهما كل الصور التي التقطناها خلال الرحلة، وخصوصًا صورة «أحمد» مع الثعبان، التي لن تُمحى من ذاكرتي أبدًا.

بعد ذلك سألتها عن حالها مع العمل بالصيدلية، فقالت: «الحمد لله، ولكن العمل أصبح كثيرًا ومتعبًا هذه الأيام، بعد ظهور الوباء، فلم يعد لنا مجال للراحة، فيوم أمس السبت اشتغلنا طيلة اليوم بلا توقف، سكتَتْ ثم أضافت ضاحكة: «نحمد الله أننا لم نعمل يوم الأحد أيضًا.

وبينما كنا نتحدث، أثار مسامعنا صوت دراجة نارية قد توقفت أمام باب المنزل، رفعت أختي رأسها ثم قالت: «هه، هذا أبي قد وصل»،

فقالت أمي مؤكدة كلامها: «نعم، لا بد أنه هو»، ثم خرجت من المطبخ وهي تنادي على أخي: «عصام!، عصام!، انزل لتساعد والدك على حمل القفة يا بني!»،

أجاب وهو يرتدي صندالة سوداء من البلاستيك: «حسنًا أمي سأذهب»، ثم نزل السلم مسرعًا، وبعده خرج «سعد» و«بلال» وهما يهتفان بسعادة: «لقد جاء جدي!، لقد جاء جدي!»،

بعد دقائق معدودة، عاد «عصام»، وهو يحمل في يده اليمنى قفة ممتلئة عن آخرها، وبيده اليسرى قنينة لبن كبيرة تزن خمسة لترات، ومن ورائه دخل أبي الذي ردد قبل تجاوزه عتبة البيت: «السلام عليكم»، كان يلهث من التعب، والعرق يعلو جبهته المخططة بالتجاعيد، كان هو الآخر يمسك في يده اليمنى ديكًا روميًّا أحمر الريش، رجلاه إلى الأعلى ورأسه متدلٍّ إلى الأسفل، وبيده اليسرى القزبر والبقدونس الملفوفان بورق الجريدة، والنعناع أيضًا...

عندما رآه كل من «سعد» و«بلال» وهو يدخل، جريا نحوه يعانقانه في سعادة، لما رفع رأسه، لحني أقف بالصالة، فابتسم وهو يقول: «زينب، كيف حالك؟! حمدًا لله على سلامتكم»، ابتسمت أنا الأخرى واتجهت نحوه بخطى سريعة، وسلمت عليه وقبلت رأسه المغطى

بطاقية سوداء من الصوف، ثم أخذت عنه ربطات النعناع والبقدونس، في حين ذهب هو بالديك الأحمر إلى الشرفة، ثم قصد الحمام مباشرة لينظف يديه ورجليه وما علاهما من وحل بالسوق، وعندما انتهى سألني وهو ينشف يديه بالفوطة: «أين زوجك؟»، قلت وأنا أشير إلى غرفة الجلوس: «إنه هناك»، عندئذ توجه إلى الغرفة مبتسمًا، وسلم على «أحمد»، ثم جلس على الأريكة ليستريح، وهو يسأله عن الرحلة.

بعد عشرة دقائق تقريبًا، نادى أبي على أختي «وفاء» كي تحضر له كيسًا من القفة مملوءًا بالفول والحمص المطبوخين والمنسمين بالملح والكمون، ثم سكبهما في صحن كبير، وبدأ يوزع على كل واحد منا حفنة بيده، ونادى على أمي وأختي أن تأخذا نصيبهما أيضًا، ثم قام هو و«أحمد» و«عصام» وذهبوا جميعًا إلى المسجد لأداء صلاة الظهر.

بعد عودتهم من المسجد، جلسنا جميعنا بالصالون، وتحلقنا حول مائدة كبيرة، وضعت أمي في وسطها قصعة الكسكس التي كان دخانها يتصاعد عاليًا، ووضعت أختي كؤوس اللبن البارد حولها، كان الطعام لذيذًا، فكسكس أمي لا يُعلى عليه دائمًا.

حان وقت أخبار الظهيرة، أخذ أبي جهاز التحكم وأنار التلفاز المثبت على الحائط، قبالة الصالون، كانت القناة الوطنية تتحدث عن الوباء، وتعرض صورًا لمصابين به، والمذيعة تقرأ تقريرًا مفصلًا يعرِّف به قائلة: «فيروس كورونا المستجد، ويُطلق عليه أيضًا «الفيروس التاجي»، وكذلك اسم " كوفيد 19 "، ظهر في أواخر ديسمبر من عام 2019، لأول مرة بالصين، وبالضبط في مدينة "ووهان"، بسوق لبيع المأكولات البحرية، وتقول الدراسات المخبرية أنه فيروس يصيب الخفافيش والثعابين، وقد انتقل عن طريق العدوى من الخفافيش إلى الإنسان، وظهرت أول حالة مصابة به بمقاطعة "هوبي" الصينية، ثم انتشر إلى باقي المقاطعات الأخرى، ومن ثَم إلى خارج الصين، بدأ من «آسيا» ثم انتقل إلى «أمريكا»، مرورا بـ«أوروبا»، ثم القارة السمراء، ليجد العالم نفسه في مواجهة وباء خطير جدًّا اسمه «كورونا»، ولم يجد الخبراء له دواءً أو لقاحًا حتى الآن».

كنا جميعنا نشاهد التقرير، قال أبي وهو يشير بيده إلى التلفاز: «سمعت اليوم أخبارًا بالسوق تقول أن حصيلة الوباء ارتفعت ببلادنا، وهناك احتمال كبير بفرض الدولة للحجر الصحي، سيرًا على نهج الدول الأجنبية، كما قيل أيضًا أن هذه هي المرة الأخيرة التي سينعقد

فيها السوق الأسبوعي، وجميع الأسواق الأسبوعية بالمملكة، تفادياً للتجمعات».

رد زوجي معقباً على كلامه: «هذا ما سمعته أنا أيضاً بأحد المتاجر»،

قالت أمي متسائلة: «وماذا عن السوق الموجود بالحي، والدكاكين، هل سيتم إغلاقها أيضًا؟!»،

أجاب أبي مبتسمًا: «أغلب الظن لا، لا يمكن أن يفعلوا ذلك، وإلا سيموت الناس جوعًا عوض الوباء».

ساد الصمت قليلًا، فسمعنا المذيعة تذكر أعراض الإصابة بالفيروس، والتي صنفها الخبراء إلى نوعين: الخفيفة والشديدة، ففي بداية الإصابة، تكون الأعراض خفيفة؛ فيعاني المصاب من التهاب خفيف في الحلق، وسيلان في الأنف، وصداع، وسعال بدون بلغم، وارتفاع طفيف في درجة الحرارة. أما مع الأعراض الشديدة، فيتفاقم الوضع، ويصبح الألم أشد؛ فيعاني المصاب من سيلان حاد في الأنف، وسعال مع بلغم، وغثيان وقيء وإسهال، وبحة في الصوت، وارتفاع مستمر في درجة الحرارة، وضيق في التنفس، إضافة إلى نقص في

الشهية، وفقدان حاستي الشم والذوق. ثم أضافت المذيعة: أن وزارة الصحة سطرت مجموعة من التدابير الاحترازية والوقائية، للحد من تفشي هذه الجائحة منها: فرض ارتداء الكمامة، والدعوة للالتزام بالتباعد الاجتماعي (مسافة متر تقريبًا)، وغسل اليدين باستمرار بالماء والصابون، وتجنب لمس العينين والأنف والفم بيدين غير نظيفتين، وتعقيم الأسطح والأماكن، والملابس، وجميع المشتريات.

في هذه الأثناء غيَّر أبي القناة، إذ كانت القناة الثانية أيضًا تعرض أخبارًا وإحصائياتٍ عن عدد الإصابات المؤكدة، والتي بلغ عددها حتى الساعة 215 إصابة، وأغلبها لمهاجرين مغاربة قدموا من إسبانيا وإيطاليا وفرنسا، ثم الحالات الحرجة بلغت 21 حالة، أما عدد الوفيات فقد وصل إلى 15 حالة وفاة.

قال أبي: «ليست هناك أي أخبار عن الحجر الصحي حتى الآن»،

أجاب أخي: «سننتظر حتى المساء لنتأكد من هذا الأمر»،

انتقل أبي إلى قنوات فضائية أخرى، كانت جميعها تتحدث عن الوباء، فقد صار موضوع الساعة الآن، والعالم بأسره يعاني من وطأته، كانت قناة "الجزيرة" تعرض فيديوهات مصورة خاصة بالفيروس، من

إسبانيا وإيطاليا، اللتين تجاوزت فيهما أعدد الإصابات خلال اليوم الواحد ستة آلاف إصابة، حتى أصبح الوضع كارثيًّا ببعض المستشفيات، إذ شاهدنا صورًا لمصابين بالفيروس ممددين بممرات المستشفيات، لغياب الأسرَّة الكافية، وهناك من يرجع سبب ذلك إلى أن هذه الدول لم تفرض الحجر الصحي مبكرًا، كما تم الحديث عن الصين أيضًا مصدر هذا الوباء، والتي فرضت حجرًا صحيًّا صارمًا، نجحت من خلاله في التحكم بالوضع، وتسجيل عدد إصابات أقل بمئات المرات مما كانت عليه في السابق.

قال أخي عصام: «معظم الدول الأجنبية الآن فرضت الحجر الصحي، فليس مستبعدًا أن يُفرض ببلادنا أيضًا».

قام «عصام» وودعنا ليصعد إلى شقته بالطابق الثالث، فقام أبي أيضًا بعده وذهب ليرتاح بغرفته وهو يقول: «في المساء –إن شاء الله– سنعرف كل شيء».

بعد صلاة العصر، أعدت أمي الشاي بالنعناع، واجتمعنا حول المائدة من جديد، وأحضرت أختي طبقًا، وأفرغت فيه كيسًا كبيرًا كان قد أحضره والدي معه من السوق، وهو خليط من الكعك الصلب والتمر والمكسرات وبعض السكاكر، تذكرت أيام الطفولة،

كم كنا نحب لحظة توزيع هذه المكسرات! تذكرت أيضًا أنني لم أقدم لهم الهدايا التي أحضرتها معي من مراكش، فقمت مسرعة وجلبتها من الحقيبة.. قدمت لأمي قفطانًا وشبشبًا، فدهشت إعجابًا بهما، وأسرعت إلى الغرفة لتقيسهما عليها، بينما أعطيت أبي جلبابًا وبلغة صفراء، فسعد بهما أيضًا، بدأت أمي تدعو لي بالصلاح والرضاء من خلف الباب، وأخذ أبي أيضًا يشكرني وهو يرتديهما في سعادة غامرة، قلت مبدية رأيي لأبي: «إنهما لائقتان عليك كثيرًا، ومقاسهما مناسب جدًّا، ارتدِهما في عيد الفطر القادم –إن شاء الله–».

أجابني وهو ينظر في المرآة بالصالة: «لن أنتظر حتى يأتي العيد، سأرتديهما بدءًا من اليوم، فلا أدري هل سأعيش أم أموت ليصل ذلك اليوم»،

قلت داعية: «بعد الشر عنك يا أبي!»،

فقال وهو يدعو لي أيضًا: «حفظك الله يا ابنتي، ورضي عنك وأرضاك، ورزقك من خيري الدنيا والآخرة»،

قلت مطأطئة رأسي: «آمين يا رب».

عندما أنهى زوجي كأس الشاي الذي بيده، طلب مني أن نذهب إلى المنزل، حتى يتسنى لـ«بلال» إنجاز تمارين العطلة، فغدًا ستستأنف الدراسة، ولا بد من الاستعداد للدخول، فودعنا الجميع وعدنا إلى المنزل.

الفصل الثالث

(الأحد 15 مارس 2020)

لم نكن ندرك أن الحياة تتغير بغتة، وأن الأقدار تتلاعب بنا كيفما تشاء وبدون أي سابق إنذار، لم نكن ندرك أن هذا اليوم هو نهاية كل شيء جميل نحبه، لم نكن ندرك أن هذه هي المرة الأخيرة التي سنسافر فيها ونجتمع مع الأحباب، لم نكن ندرك أن عالمنا سينقلب رأسًا على عقب.

لما وصلنا إلى شقتنا بالطابق الرابع، شعرنا بالإعياء الشديد، فاستلقينا لنستريح، ولم نستيقظ إلا بعد سماعنا لأذان المغرب، ذهب «أحمد» إلى المسجد، في حين أديت أنا صلاتي بالمنزل، وجلست بجانب «بلال» أساعده على إنجاز تمارينه.

دقت الساعة التاسعة مساء، فخرج «أحمد» من غرفة النوم مسرعًا، وأنار جهاز التلفاز لمشاهدة نشرة الأخبار، التي عادة ما تبدأ

مع التاسعة وخمس عشرة دقيقة، شاهدنا حينها عرض وصلة إشهارية عن ضرورة ارتداء الكمامة في الأماكن العامة، والابتعاد مسافة متر تقريبًا عند الاختلاط بالآخرين، ثم بعدها بدأت النشرة.

كان أول خبر صرحت به المذيعة هو قرار فرض الحجر الصحي ابتداء من يوم غدٍ بكل أنحاء المملكة طيلة النهار، وفرض حالة الطوارئ الصحية بالليل، ابتداء من الساعة الثامنة مساء، فلا يُسمح للمواطنين بالخروج أبدًا إلا للضرورة القصوى، فقد وضعت الدولة ورقة استثنائية بكل المقاطعات ليدلي بها المواطنون لدى شرطة المراقبة عند الخروج لقضاء حاجياتهم الضرورية، وأشارت إلى أنه سيكون إغلاقًا شاملًا، باستثناء بعض المحالّ لبيع المواد الأساسية، وشركات صنع الأدوية، والمختبرات، والصيدليات، إضافة إلى المستشفيات، وبعض الشركات الحيوية بالمدن الصناعية، كما أضافت المذيعة أنه يُمنع منعًا كليًّا التجمهر أو التجمع، ويُمنع تنظيم الندوات والخطب والمهرجانات، فقد قررت الدولة إغلاق جميع المرافق العامة كالحدائق والملاعب والقاعات الرياضية، وقاعات الأفراح، ومآتم العزاء، والحمامات العمومية، وحتى المساجد.

التفتُّ إلي «أحمد» وهو يضرب جبهته بيده مصدومًا: «حتى المساجد ستُغلق أيضًا!!»، نظرت إليه وعلامات الأسى على وجهي، ثم عدنا لنستمع للمذيعة التي واصلت قائلة: «وسيتم إغلاق المدارس والجامعات والمعاهد التكوينية، نظرت إليه وقد اتسعت عيناي من الدهشة وأنا أهتف: «حتى المدارس!!»، تابعت المذيعة مرة أخرى: «وسيتم اعتماد نظام جديد بالتعليم، هو «نظام التعليم عن بعد»، وذلك بالاعتماد على مختلف وسائل التواصل الاجتماعي (واتساب، فيسبوك، تويتر...)، حيث عملت وزارة التربية والتعليم على إنجاز منصة خاصة على صفحتها الرسمية أُطلق عليها منصة «تلميذ تيس»، وهي تتضمن فيديوهات شارحة لأغلب الدروس بالمقررات الدراسية، بكل المستويات التعليمية، كما ستعمل على بث الدروس على بعض القنوات التلفزية، لجميع المستويات. قلت وأنا مصدومة: «لم أكن أتوقع أن يتم إغلاق المساجد والمدارس أيضًا»،

قال معقبًا: «وأنا كذلك، لم أتوقع ذلك إطلاقًا»، سكت ثم أردف قائلًا: «إذن فـ"بلال" لن يذهب غدًا إلى المدرسة»،

أجبت مؤكدة: «أجل، لن يذهب، فكل التلاميذ سيتابعون دراستهم من المنازل».

بدأنا نحتسي الشاي بينما نشاهد التلفاز، لنعرف تفاصيل أكثر عن الحجر الصحي المنزلي، ذكر تقرير بالقناة الثانية أن الدولة نهجت سياسة رشيدة في احتواء الوباء، وكانت سباقة من بين كل الدول بالوطن العربي إلى فرض الكمامة، ثم بعد ذلك فرض الحجر الصحي، بغية الإنقاص من عدد الإصابات، ومن ثَمَ تفادي امتلاء المستشفيات، وتجنب الوصول إلى أوضاع كارثية –لا قدر الله–.

في هذه الأثناء أذن المؤذن لصلاة العشاء، فقال «أحمد»: «سأقوم لأذهب إلى المسجد، فهذه آخر صلاة لنا به قبل الإغلاق، ولقد شدد الإمام علينا بعد أدائنا لصلاة المغرب، على ضرورة ارتداء الكمامة، وإحضار السجادة، والالتزام بالتباعد، عند أداء الصلاة»،

قلت داعية: «نسأل الله أن يلطف بحالنا وبأحوال جميع المسلمين»،

قال بصوت مهموس: «آمين يا رب»، ثم حمل الكمامة والسجادة وخرج.

بعد عودته من المسجد، دخل بخطوات متثاقلة، وعلامات الأسى والحزن على وجهه، سألته في استغراب: «ماذا هناك؟»،

أجاب محاولًا إخفاء حزنه: «لا شيء، تأثرت فقط بما رأيت في المسجد»، قلت في حيرة: «وماذا رأيت؟»،

قال: «لقد مُنع كل مُصلٍّ لا يرتدي الكمامة من دخول المسجد، وفُرض التباعد بين المصلين، وبسبب هذا التباعد، عدد قليل من الناس فقط من أتيحت له الصلاة بالداخل، والأغلبية الساحقة صلوا خارجه، وكنت أنا منهم، والأمر الذي كان مؤثرًا بعد الانتهاء من الصلاة، وتسبب في بكاء الكثيرين، هو لما أخبرنا الإمام بأن مسجد حيِّنا، وكل المساجد بالمملكة، ستُغلق في وجوه المصلين ابتداء من يوم غدٍ، وردد عبارة: «صلوا في منازلكم»، في هذه اللحظة سادت ضجة كبيرة بين المصلين، فهناك العديد منهم لم يتقبلوا هذا القرار، وبدؤوا بتبرير موقفهم من ذلك، موضحين أنه ما دام جميع المصلين يرتدون الكمامة، ويلتزمون بالتباعد، فلا داعي لهذا الإغلاق، في حين تقبل البعض الآخر القرار بصدر رحب خوفًا على صحتهم.

كنت بين الفينة والأخرى أسمع صوت سيارة الإسعاف يتردد صداها في الحي، فسألت «أحمد» عن ذلك، فأخبرني أنها تأتي لنقل المصابين بفيروس كورونا، الذين لم تعد لهم القدرة على الذهاب إلى المستشفى بسبب حالتهم الحرجة.

قلت: «نسأل الله لهم الشفاء جميعًا»، رد: «آمين»، ثم نادى على «بلال» الذي كان يتسلى بالألعاب الإلكترونية على الهاتف، وقال: «هيا لنخلد للنوم، حتى نستريح من تعب هذا اليوم الذي كان طويلًا ومليئًا بالمفاجآت».

الفصل الرابع

(الاثنين 16 مارس 2020)

في صباح اليوم التالي، استيقظت على صوت سيارة الإسعاف وقد توقفت بجانب المنزل، قمت مسرعة من السرير، ونظرت من النافذة، فإذا بي أرى جارتنا المسنة التي تقرب الثمانين من عمرها، تخرج من باب العمارة المقابلة لنا، مقوسة الظهر، تمسك بعصا تتكئ عليها، وترتدي كمامة على وجهها، وبجانبها أحد المسعفين، كان لباسه الجلدي الأبيض الشبيه برواد الفضاء يغطي جسمه بالكامل، فمجرد النظر لشكل ذلك المسعف كفيل بإثارة الرهبة والخوف في النفس، كان يساعدها على الصعود لسيارة الإسعاف، ثم عاد متجهًا إلى الباب ليأخذ حقيبة سوداء من ابنها الأكبر، الذي كان يقف هو وأخته وزوجته بالباب، وعلامات الحزن على وجوههم.

كانت سيارة الإسعاف مختلفة تمامًا عما كنا نعرف، فهذه كبيرة الحجم بعض الشيء، بيضاء اللون، مكتوب عليها بخط عريض أزرق

"سيارة إسعاف خاصة بمصابي فيروس كورونا المستجد". لما قرأت ذلك علمت حينها أن جارتنا المسكينة قد أُصيبت بهذا الوباء، ورأيت ابنتها الصغرى تقترب منها وهي تنتحب من البكاء، تريد أن تودعها، لكن المسعف نهرها ومنعها من ذلك، بل وأمرها بالابتعاد حتى لا تنتقل لها العدوى هي أيضًا، ثم ناول ابنها ورقة، وصعد السيارة بعدها، وما أن شغل السائق محركها حتى عادت تطلق الصفير من جديد.

توجهت إلى المطبخ وأعددت الفطور، ثم أنرت التلفاز وجلست قبالته على الأريكة، وبدأت أبحث عن قناة "العيون" التي ستبث دروس الدعم بالنسبة للمستوى الابتدائي بينما أرتشف القهوة، حتى وجدتها.. كانوا يعرضون درسًا خاصًّا بالمستوى الأول، وانتظرت حتى انتقلوا إلى المستوى الثاني، ثم ناديت على بلال ليتابع معهم.

قمت لأعد الغداء، رأيت زوجي يرتدي ملابسه للخروج، فسألته: «أتنوي الخروج اليوم؟! أنسيت الحجر الصحي المنزلي؟!»

أجاب موضحًا: «لا، لم أَنْسَ، ولكني أريد الذهاب إلى مركز المقاطعة لأحضر ورقة الخروج الاستثنائية، لأقدمها كإذن بالخروج لاقتناء الحاجيات الضرورية، كالكمامات، ومواد التعقيم، والمواد الغذائية...»

قلت: «أجل، لقد نسيتها حقًّا، لا بد من الحصول عليها حتى يتمكن أحدنا من الخروج».

مرت ساعتان تقريبًا، حتى عاد «أحمد» وفي جيبه ورقة الإذن بالخروج، وقد أحضر معه كيسًا من الخضار وقليلًا من اللحم، ووضعهم فوق مائدة المطبخ، ثم استخرج الورقة وأراني إياها، مما أثار حفيظتي أن أطّلع عليها، فأخذتها منه، وبدأت أتفحص كل ما كُتب فيها، وما جذب انتباهي هو أن الورقة لا تُسلَّم إلا لشخص واحد فقط من كل عائلة، ويُمنع منعًا باتًّا الخروج لكل من لا يحوزها.. شعرت بالغبن عندما فكرت في الأمر، إذن، فسنبقى مسجونين أنا وابني بالمنزل، ولا يمكننا الخروج ولو إلى الحديقة، وذلك إلى وقت غير معلوم، أحسست وكأن لعنة إلهية قد أصابتنا لا شك في هذه الأيام.

مع حدود الساعة الثامنة مساء، سمعنا سيارات الشرطة تجوب شوارع الحي، وتنادي بكلمات يتردد صداها في كل مكان، حينما اقتربت من شارعنا ذهبنا إلى الشرفة نستعلم الأمر، رأينا سيارة بيضاء للأمن الوطني، تتبعها سيارة من الحجم الكبير للقوات المساعدة، وكان أحد رجال الشرطة يمد رأسه من السيارة، وهو يحمل مكبرًا للصوت وينادي: «أيها المواطنون، أيتها المواطنات، فيروس كورونا قاتل

وخطير، سريع العدوى والانتشار، ابقوا في منازلكم، احموا أنفسكم وعائلاتكم».

كان الجيران أيضًا يشرئبون بأعناقهم من النوافذ ومن سطوح العمارات، ليشاهدوا ويسمعوا هذا النداء، حتى توارت سيارات الشرطة عن الأنظار، ولم يبق إلا صداها يتردد في أرجاء الحي.

عدنا للجلوس مرة أخرى، كانت نشرة الأخبار قد بدأت، وكالعادة فلا حديث إلا عن الفيروس، إذ قدمت وزارة الصحة إحصائيات لعدد الإصابات المسجلة خلال هذا اليوم، وعدد الوفيات، ثم إحصاء لمجموع الإصابات المسجلة منذ بداية الوباء إلى الآن، والتي وصلت إلى اثني عشر ألف إصابة، إضافة إلى الحالات الحرجة الموضوعة تحت أيدي العناية الطبية بالمستشفيات، كما أكدت المذيعة على ظهور متحورات جديدة للفيروس، وقد بدأت بالانتشار تدريجيًّا في ربوع البلاد، أشهرها متحور "دلتا"، ومتحور " أوميكرون"، الأمر الذي ينذر بأن فيروس كورونا يحافظ على وجوده معنا لجولات أخرى أصعب وأشد شراسة من ذي قبل.

الفصل الخامس

(الثلاثاء 17 مارس 2020)

في صباح اليوم التالي، نحو الثامنة والنصف، استيقظت وأعددت الفطور، ثم أيقظت «أحمد» و«بلالًا»، وأنرت التلفاز في انتظار بث الدروس الخاصة بـ«بلال»، بين الفينة والأخرى كنا نسمع صوت سيارة الإسعاف يتردد في الحي.

بعد الغداء أخذت الهاتف واتصلت بوالدتي، كان صوتها حزينًا ومتعبًا، سألتها عن حالها وحال والدي، فأجابت بنبرة تظهر أنها على غير ما يُرام: «أنا بخير والحمد لله»، بادرتها بالسؤال: «وأبي، كيف حاله؟»،

أجابت: «إنه قلق ومتوتر هذا اليوم»،

سألتها: «لماذا؟»،

أجابت: «اليوم بالشركة، اكتشفوا عددًا كبيرًا من العمال معه مصابون بفيروس كورونا»،

صرخت قائلة: «يا إلهي، هذا ما كنا نخشاه، حبذا لو أن الدولة تفرض الإغلاق على الشركات جميعها، لتفادي العدوى بين العمال».

قالت موضحة: «كل الشركات، سواء العامة أو الخاصة، لا تريد إغلاق أبوابها، والدولة لا تحبذ ذلك أيضًا، لأنها غير قادرة على تكبد خسارة أن تتوقف عجلة الاقتصاد تمامًا، أو يصيبها الكساد».

سألتها قائلة: «هؤلاء العمال الذين أُصيبوا بالفيروس، هل يعملون بالقرب منه؟»،

أجابت: «لا أدري يا ابنتي، ما أعرفه الآن هو أنهم نقلوا جميع المصابين إلى المستشفى بعد اكتشاف إصابتهم، أما باقي العمال، فقد أجروا لهم جميعًا تحليلات مخبرية للكشف عن حالتهم الصحية، ومن بين هؤلاء العمال كان والدك أيضًا»،

صرخت من الدهشة قائلة: «أبي أيضًا أجرى ذلك التحليل المخبري؟»،

ردت بحزن مؤكدة كلامها: «أجل، لقد أجراه والدك أيضًا»، سكتت برهة وتابعت كلامها: «كل الشركات التي ما زالت تعمل الآن، فرضت عليها الدولة إتباع إجراءات الوقاية من الفيروس، وذلك بارتداء الكمامات، وتوفير أدوات التعقيم، وقياس حرارة كل عامل قبل الدخول، وإذا تم اكتشاف أي حالة مرضية، فلا بد من إجراء التحاليل المخبرية للتأكد من إصابته، وفي حالة ثبوت إصابة أي عامل بالشركة، فلا بد من توقيفه عن العمل، وإرساله للمستشفى، ومتابعة مراحله العلاجية»،

سألتها قائلة: «هل هو بالمنزل الآن؟ أريد أن أحدثه؟!»،

أجابت: «لا، لقد صعد عند أخيك «عصام» بالطابق الثالث، ليحدثه عن هذا الأمر»، سكتت ثم أضافت: «آه لو رأيت وجهه اليوم، كيف أصبح شاحبًا ممصوص الدماء! منذ أن عاد من العمل، لم يذق شيئًا من الطعام؛ لقد فقد شهيته من شدة الجزع».

قلت داعية: «نسأل الله له السلامة والعافية، وأن يحفظه من كل سوء»، سكتت برهة ثم قلت وأنا أتلو الآية الكريمة: {قل لن يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا} صدق الله العظيم. (سورة التوبة، الآية 51)

قالت أمي: «ونِعم بالله يا ابنتي»،

سألتها قائلة: «هل سيذهب غدًا إلى العمل؟»،

أجابت نافية: «لا، لن يذهب، فقد تم توقيفهم جميعًا عن العمل، وطُلب منهم البقاء في المنزل حتى وقت إخبارهم بالنتيجة، والتي إما أن تكون إيجابية وإما سلبية»، قلت: «أتمنى أن يكون خيرًا. إن شاء الله غدًا صباحًا، سآتي للاطمئنان عليه»،

سألت أمي مستفسرة: «هل حصلتِ على ورقة الخروج الاستثنائية؟»،

أجبتها بحزم: «لا، لم أحصل عليها، ولكن لا بد أن آتي لأزوره»،

قالت أمي بسخط: «أنا أيضًا لم أحصل عليها، فهم لا يسلمونها إلا لشخص واحد من كل أسرة» قلت: «أجل، كم هذا مؤسف حقًّا»، ثم ودعتها، وأغلقت الخط.

بقيت جالسة أفكر في وضع أبي المسكين، وأتخيل شعوره الآن وهو يترقب نتيجة التحاليل المخبرية، كانت بين الحين والآخر تراودني أفكار سيئة عن هذا الأمر، وسؤال واحد يتردد في مخيلتي: «ماذا لو كانت النتيجة إيجابية، وأُصيب أبي بالفيروس كالعمال الآخرين؟».

كنت أجهد نفسي لطرد هذه الأفكار السوداوية من ذهني.. أنرت التلفاز، فقد كانت القناة الثانية تعرض مسلسلًا تركيًّا، كنت أتابع حلقاته فيما مضى، جلست أشاهده مع أنه لم تكن لي رغبة في ذلك، فقط من أجل أن أطرد عني تلك الأفكار، لكن بدون أي جدوى. بعد دقائق قليلة رفعت رأسي إلى التلفاز، كانت حلقة المسلسل قد انتهت، وبدأ عرض وصلة إشهارية حول التوعية بضرورة ارتداء الكمامة، وتفادي العطس بالقرب من الناس، لأن العدوى تنتشر عبر الهواء، إما بالرذاذ أو مخاط الأنف، وبعد هذه الوصلة مباشرة بدأت نشرة الأخبار المسائية، كان أول خبر عن ارتفاع عدد الإصابات بفيروس كورونا، وأن الوباء قد وصل إلى مرحلة الذروة، ليصل إلى ثلاثة آلاف إصابة خلال اليوم الواحد، وتمركز أغلب الإصابات بمدينة الدار البيضاء، وبالضبط بالأحياء الصناعية، إذ كشفت عدة شركات ومعامل صناعية عن إصابة عامليها بالفيروس، وانتشاره بينهم، ومن بين هذه الشركات، شركة صناعة الأحذية التي يعمل بها والدي، شعرت حينها بقشعريرة تسري في داخلي، وبصداع شديد في رأسي، فقررت أن أقوم لأصلي صلاة العشاء، ثم أنام.

الفصل السادس

(الأربعاء 18 مارس 2020)

في مستهل الصباح، حملت هاتفي واستلقيت على الأريكة بالصالة، ووضعت لحافًا من الصوف على قدمي لتدفئتهما، وبدأت أستطلع الأخبار على مواقع التواصل الاجتماعي، وجدت أن معظم الفيديوهات موضوعها واحد وهو فيروس كورونا، في بعض الفيديوهات تم عرض صور لرؤساء دول، ولفنانين ومشاهير أصيبوا بالفيروس، وهناك من قد فارق الحياة منهم، وهذا يعني أن الفيروس لا يفرق بين صغير أو كبير، غني أو فقير، شهير أو مغمور.

مع العاشرة والنصف استأذنت زوجي في الذهاب لزيارة والدي، فوافقني على ذلك، فارتديت ملابسي، ووضعت الكمامة على وجهي، ثم خرجت. أخذت أتلو بعض آيات الحفظ، حتى لا ألتقي بأحد من رجال الشرطة، كانت هذه هي المرة الأولى التي أخرج فيها من المنزل بعد فرض الحجر، التفت يمنة ويسرة.

كان الشارع خاليًا ومختلفا عما عهدته سابقًا، فكثير من المحالّ أغلقت أبوابها، كمحل بيع الأواني المنزلية، ومحل بيع الأفرشة والزرابي، المجاورين للمنزل، وصالون الحلاقة الرجالي أيضًا...

عندما قطعت الشارع إلى نهايته، وعزمت أن أعرج على الشارع الذي يليه على اليمين، حيث الصيدلية والسوق، لمحت سيارة الشرطة تقف على رأس الشارع، كان الناس يصطفون أمام الصيدلية في طابور طويل، والسوق يعرف رواجًا، على عكس الأماكن كلها، وعوض أن أواصل المسير بذلك الشارع، عرجت إلى اليسار مبتعدة، تفاديًا لأي مشكلات مع الشرطة.

سرت ببعض الأزقة والدروب، حتى وصلت إلى المنزل، ضغطت زر "الإنترفون" ففتحت والدتي الباب، صعدت الدرج حتى وصلت إلى الباب الرئيسي، فوجدتها تنتظرني، قلت وأنا أنزع عني الحذاء: «السلام عليكم»، ردت مسرعة: «وعليكم السلام يا ابنتي، ادخلي، ولا داعي لمعانقتي أو معانقة والدك، فلا نعلم أين يختبئ لنا هذا الوباء»، سألتها بلهفة: «كيف حالك يا أمي؟، وكيف حال والدي؟»،

أجابت: «الحمد لله على كل حال، والدك ما زال نائمًا بغرفته، فقد ناديته لتناول الفطور لكنه لم يرغب في ذلك»، قلت بقلق ظاهر: «هذا

ليس جيدًا لصحته، خصوصًا مع هذا الوباء، يجب أن يتغذَّى جيدًا، لتقوية مناعته ويحمي نفسه من الإصابة، قاطعتني قائلة: «حاولي أن تتكلمي معه، فلم يذقْ شيئًا منذ الأمس»، قلت: «حسنًا أمي، سأفعل ذلك الآن».

ذهبت إلى المطبخ، وسكبت كأس حليب كبيرًا، وضعته في صينية صغيرة مع قطعة من الخبز وقليل من الجبن، وبعض رطب التمر، ثم أخذتها إلى غرفته، طرقت الباب، فسمعته يسأل: «من؟»، أجبت بسرعة: «هذه أنا يا أبي، زينب»، قال بصوت مبحوح: «تفضلي بالدخول يا ابنتي»، فتحت الباب وأنا أبتسم وأردد: «السلام عليك يا أبي»، ثم خطوت بضع خطوات إلى الداخل، رأيته يجلس مكومًا في السرير، لما رآني أدخل أخذ يسرع في ارتداء كمامته وهو يرد السلام، ويحاول أن يستقيم في جلسته، اقتربت منه، ووضعت الصينية على المنضدة بجانبه، ثم تراجعت إلى الوراء على بُعد متر أو يزيد، وسألته: «كيف حالك يا أبي؟»، رد متلعثمًا: «الحمد لله، أحاول أن أكون بخير»، قلت بقلق: «ولكنك لم تعد تأكل، وهذا ليس جيدًا لصحتك البتة»، أجاب: «ولكن صدقيني يا ابنتي إنه لم تعد لي شهية للأكل مع هذا الانتظار المريع»، قلت: «نعم، أفهم ذلك، ولكن حاول أن تتغلب على الشعور السيئ داخلك، كما قال الله –سبحانه وتعالى–

في كتابه العزيز: «قل لن يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا» صدق الله العظيم، قال مطأطئًا رأسه: «ونعم بالله يا ابنتي»، سكتت برهة، ثم استطردت قائلة: «جميع الأطباء الآن ينصحون بتناول غذاء صحي متوازن لتقوية مناعة الجسم ضد هذا الوباء، حاول أن تأكل ولو قليلًا أرجوك، فإن لم يكن من أجلك، فلأجلنا نحن»، رد وهو يرفع سبابته: «سأحاول أن أشرب الحليب فقط»، قلت: «حسنًا، لا بأس»، انحنى قليلًا ومد يده وأخذ كوب الحليب، وما أن مده إلى فمه ورشف منه جرعة، حتى سمع هاتفه المحمول يرن، بدأ يسعل وهو يضع الكوب على المنضدة، ويحاول أن يلتقط الهاتف، كانت يداه ترتجفان بقوة، تأففت وأنا أقول في نفسي: «يا لسوء الحظ!، لم يجدوا وقتًا غير هذا ليتصلوا به!»، ثم سمعته يجيب متلعثمًا: «ألو، من المتكلم؟»، أخذت أنظر إليه وهو ينصت للمتصل، فجأة انعقد حاجباه وتغير لون وجهه، وأصبحت ملامحه جامدة لا حياة فيها، زاغت عيناه واتسعت، وارتجفت يداه بقوة وارتجت، حتى سقط منه الهاتف، صرخت وأنا أقول بتلعثم: «أهو الطبيب؟ ماذا قال؟»، بقي صامتًا مصدومًا لا يقو على الكلام، أسرعت والتقطت الهاتف وأنا أسأل: «ألو، من المتكلم؟»، أجابني صوت جهوري غليظ النبرة: «أنا الطبيب الخاص بالشركة يا سيدتي»، قلت بلهفة: «ماذا هناك؟ ما هي أخبار النتيجة؟»،

رد بصرامة: «آسف يا سيدتي، ولكن النتيجة كانت إيجابية، وعليه، فإن السيد/ «مصطفى» مصاب بفيروس كورونا»، صرخت وأنا أقول: «لا لا، لا يمكن ذلك، لربما هناك خطأ ما، فهو لا يظهر عليه المرض بتاتا»،

رد الطبيب بجفاء موضحًا: «بل متأكد يا سيدتي مما أقول، فهناك من المصابين من تظهر عليه أعراض الفيروس منذ البداية، وهناك من لا تظهر عليه إلا بعد مرور أربعة أيام أو يزيد»،

بقيت واقفة أرتجف وأنا غير مصدقة ما يحدث، كان الطبيب ما يزال يتحدث على الهاتف، لكن في هذه اللحظة لم أعد أتبين من كلامه شيئًا، فجأة سمعته يردد: «ألو، ألو، سيدتي، هل ما زلتِ تسمعينني؟»، رددت عليه بصوت مهموس متلعثم: «أجل»، قال ناصحًا: «لا بد للمريض أن يخضع لحجر صحي داخل غرفته، لمدة تتراوح بين عشرة إلى أربعة عشر يومًا، وأن يتخذ جميع الاحترازات الوقائية حتى لا ينقل العدوى لمن حوله، وأن يتبع غذاءً صحيًّا متوازنًا، ويتناول بعض الفيتامينات، كفيتامين "س"، وفيتامين " د"، والمغنزيوم...، لتقوية جهازه المناعي، في ظل عدم توفر دواء معالج حتى الآن، وفي حالة ما ازداد وضعه سوءًا –لا قدر الله–، فيجب الاتصال

على هذا الرقم الخاص بالشركة، حتى نرسل له سيارة إسعاف لنقله إلى المستشفى، صمت قليلًا ثم قال: «أتمنى له الشفاء العاجل سيدتي»، قلت مرددة: «آمين» ثم أغلقت الخط.

وقفت مصدومة لا أقوى على الحراك، وأنا أنظر لأبي بعينين مشدوهتين، سمعته يتنحنح، ثم رأيته يتحسس حلقه الجاف بإحدى يديه، وبعد ذلك حمل قنينة الماء أمامه بيدين مرتجفتين، وسكب كأسًا، وأخذ يتجرعه دفعة واحدة، فكرت أن أقترب منه لأواسيه، لكني تذكرت نصائح الطبيب، وأحسست أن كل قطعة في قلبي تتقطع حزنًا عليه، وأدركت خلال هذه اللحظات المريرة، كم هذا الوباء غادر وقاس، يمنعنا من مواساة أقرب الناس إلينا حتى في أصعب اللحظات، بكيت بكاءً مكتومًا، شعرت باليأس والإحباط، بدا لي كما لو أن هذا العذاب لا نهاية له...

في هذه الأثناء دخلت أمي الغرفة وهي تحمل صينية من الشاي، وترسم على وجهها ابتسامة، كانت سعيدة لأن أبي وافق أخيرًا أن يأكل، لم تكن المسكينة تعرف شيئًا عن ذلك الخبر، رأيتها تنظر إليَّ باستغراب، لا بد أنها رأت الدموع المنهمرة على خدي، انتقلت ببصرها إلى هاتف أبي الذي ما زلتُ أمسكه بيدي التي كانت ترتعش

من التوتر، فجأة أمطرتني بوابل من الأسئلة: «زينب!، ماذا حدث؟ هل اتصلوا؟ هل أخبروكم بشيء؟ لماذا تبكين؟، حاولت أن أتمالك نفسي قدر الإمكان، اتجهت نحوها وأخذت عنها صينية الشاي الساخن حتى لا تسقط من يدها، ووضعتها على المنضدة، واختلست النظر إلى أبي فلمحته يخفي وجهه بإحدى يديه، واضعًا رأسه بين ركبتيه، عدت لأنظر إلى أمي التي كانت تتطلع إليَّ بنظراتها المتسائلة، وتنتظر مني جوابًا، وقلت بصوت متقطع: «لقد اتصل الطبيب»،

سألت بحنق: «وماذا قال؟»،

قلت بجفاء: «لقد وقع ما كنا نخافه» سكتُّ بعد أن انقطع نفسي ثم أضفت باكية: «إن أبي مصاب بالكورونا»،

شهقت من هول ما سمعت، وجلست منهارة على السرير، وكأنما أُصيبت برصاصة، وهي تتمتم بصوت أجش: «أيمكن ذلك؟ وكيف حصل؟، ومتى؟»،

قلت: «لا أدري، ولا أحد من الناس يدري، فهذا الفيروس لا يُرى بالعين المجردة، لا أحد يعلم أين يكون، وأين لا يكون، فهناك من الناس من يكون مصابًا ولا تظهر عليه الأعراض، وينقل العدوى إلى

الآخرين من غير أن يدري، ربما بالشركة، أو بالسوق، أو... لا أدري بالضبط أين كان ذلك». قالت بعد أن هدأ روعها قليلًا: «يجب أن نأخذه إلى المستشفى لنتأكد من الأمر»، قلت موضحة: «قال الطبيب أنه يجب أن يخضع لحجر صحي داخل غرفته، وإن لم تتحسن حالته، بعدها ننقله إلى المستشفى»،

التفتُّ إلى أبي محاولة التخفيف من روعه، وقد كان لا يزال يخفي وجهه بين ركبتيه، وقلت: «المهم الآن يا أبي هو أن تعتني بصحتك، وتأكل جيدًا، وتطرد عنك القلق والتوتر، لتتغلب على الفيروس وتطرده نهائيًّا، فكثير من الناس أُصيبوا به، وتماثلوا للشفاء بعد مرور أسبوع أو أسبوعين تقريبًا»، عندما سمع كلامي، رفع رأسه قليلًا، وأومأ به إيجابًا ثم عاد ليخفضه من جديد. استطردت قائلة: «يجب أن تأكل شيئا يا أبي! قل لي ما تحب أن تأكله، وسأحضره لك في الحال»، أجاب وقد انفرجت أساريره شيئًا ما: «اطمئني يا ابنتي سأحاول أن آكل، ليس خوفًا من الموت.. أبدًا.. فلا أحد يهرب من قدره، ولكن إرضاءً لطلباتكم فقط، فأنا لا أستطيع أن أرفض لكم طلبًا». قلت متأثرة وقد اغرورقت عيناي بالدموع: «حفظك الله يا أبي، وأطال في عمرك، وجعل هذا المرض بردًا وسلامًا عليك»، قالت أمي: «اتصلي بأختك لتحضري لأبيك الدواء والفيتامينات، قبل أن تنهي دوامها

الصباحي»، حركت رأسي موافقة ثم أخذت هاتفي، وخرجت من الغرفة، حاولت أن أبتعد عن الغرفة بما يكفي لكي لا يصل الصوت إلى أبي، كنت مرتبكة جدًّا، فكيف سأخبر أختي وهي بمقر عملها بهذا الخبر الصادم، الذي لا أحد منا كان يتوقعه، وكما كنت متوقعة تمامًا، فلقد انهارت أختي من الصدمة بعدما أطلعتها على الخبر، ولم تصدق ذلك في بادئ الأمر، سمعت الدكتور وكل رفيقاتها بالصيدلية يهدئون من روعها، ولما هدأت قليلًا، طلبت منها إحضار ما يتناوله كل مصاب بهذا الفيروس من عقاقير وفيتامينات، وغير ذلك...»

قالت بصوت متحشرج مخنوق بالبكاء: «حسنًا، سأفعل، ولو أن هذا الفيروس لم يكتشفوا له دواء حتى الآن»، بعدما أنهيت المكالمة، اعتذرت لأمي بالذهاب، وودعت أبي متمنية له الشفاء العاجل.

سرت بخطوات متثاقلة إلى المنزل، وكأني أحمل جبلًا على كتفي، وأنفاسي مخنوقة، حتى لا أكاد أتنفس، أرغب بالبكاء، ولكن أين؟، لا أستطيع البكاء في الشارع، فمعظم الناس تعرفني هنا، إذا رآني أحدهم أبكي سيمطرني بوابل من الأسئلة، زيادة على أنهم إن علموا بإصابة والدي، سيفرون مني كما تفر الذئاب من الأسود، فأنا أعرفهم جيدًا، إنهم يخافون الاقتراب من أي شخص مشكوك في إصابته، يخافون من

أي شخص ينتمي لعائلة بها شخص مصاب، فقد أخبرتنا أختي «وفاء»، عن حدث طريف وقع معهم بالأمس في العمل بالصيدلية، إذ جاء رجل وطلب شراء التحليل المخبري للكشف عن إصابته بفيروس كورونا، لما سمع الزبائن ذلك فروا جميعًا هاربين من الصيدلية، فالناس تخاف الوباء أكثر من أي شيء آخر.

سمعت سيارة شرطة وسيارة إسعاف قادمتين من بعيد، هذه المرة لم أختبئ، فما عدت أخاف أن أُعاقب أو أُسجن، أو بالأحرى ما عاد يهمني شيء على الإطلاق، سمعت صوتهما يقترب أكثر فأكثر، ثم فجأة رأيتهما قادمتين في اتجاهي بأحد الأزقة الضيقة، كل الأبواب كانت مغلقة، ولا يوجد مكان للاختباء، فجأة توقفت سيارة الشرطة أمامي مباشرة، وأشار إليَّ الشرطي بيده كي أتوقف، خفق قلبي بشدة، بعدها نزل من السيارة مسرعًا، وتقدم بضع خطوات في اتجاهي، ثم توقف منتصبًا بطوله الفاره ينظر لأحد الأبواب، كان يرتدي كمامة سوداء مرسومًا عليها العلم الوطني، ثم توقفت سيارة الإسعاف أيضًا، ونزل منها رجلان كأنهما رائدا فضاء...

في هذه الأثناء رأيت باب المنزل الذي بقربي يفتح، ويخرج منه رجل نحيل كهيكل عظمي، يقارب الأربعين من العمر، كان مطأطئ الرأس،

رجلاه لا تقويان على حمله من شدة الخوف والارتعاب، ما أن لمحه الرجلان يخرج حتى أسرعا نحوه يمسكان به، كلٌّ من جهته، وأخذاه إلى سيارة الإسعاف، ثم رأيت زوجته، وثلاثة من أبنائه، خرجوا ليودعوه وعيونهم منتفخة من البكاء، جرى الأطفال فجأة للحاق بأبيهم وهم يصرخون: «بابا، بابا»، لكن الشرطي أمسك بهم، ومنعهم من الاقتراب منه، ثم أمر المرأة بأخذهم والدخول معهم إلى المنزل، شاهدت المرأة المسكينة تحتضن أطفالها وتدخل وهي تبكي بحرقة.

بقيت متسمرة في مكاني، لا أدري هل أتقدم أم أتأخر، وقفت أرقب هذا المشهد المحزن، الذي أشعرني حينئذ أن هذا الوباء مرض ليس كبقية الأمراض الأخرى، فهو يسلبنا الإحساس بالحياة، يقسو على الصغير منا والكبير، على المصاب به وغير المصاب، تبدو الحياة معه تافهة وبلا معنى.

بقيت واقفة حتى تحركت السيارتان من جديد، واختفتا عن الأنظار، ثم واصلت المسير، وفي طريقي عرجت على أحد المتاجر لشراء بعض الحلوى والسكاكر لابني «بلال»، ثم تابعت السير من جديد حتى وصلت إلى المنزل، فوجئت بحشد من الناس، يقفون أمام باب العمارة وفي عيونهم علامات الكرب والحزن، وكان باب العمارة المقابلة لنا

مفتوحًا، ويقف به ابن تلك السيدة المسنة وأخته، تلك التي أخذتها سيارة الإسعاف بالأمس إلى المستشفى، كانا يقفان وعيونهما دامعة حمراء، وقد سمعتهما يتلقيان العزاء.. إذن، فتلك المرأة المسنة قد فارقت الحياة...

حزنت لأجلها وشعرت بالحسرة على أبنائها، فلا أحد من الناس يجرؤ على الاقتراب منهم، ومواساتهم عن قرب، الكل يقف على بعد متر أو أكثر، فكرت أن أقدم لهما العزاء أنا أيضًا، تقدمت بضع خطوات حتى وقفت على بعد متر قبالتهما، نظرت إليهما في حزن، وبدأت بإلقاء عبارات مواسية لتعزيتهما، ما كدت أنهي كلامي حتى سمعت صوتًا غليظًا يزعق من خلفي وهو يقول: «هاي، أنتم جميعكم!، هيا، من قدم العزاء فليذهب، لا نريد تجمعات هنا»، التفت ورائي فوجدت شرطيًّا ضخم الجثة، طويل القامة، يقف على مقربة مني وعلامة الغضب على وجهه القاسي، ما أن أتم كلامه، حتى اختفى كل ذلك الحشد من الناس كما لو أن الأرض قد ابتلعتهم، عندها أسرعت الخطى بدوري ودخلت العمارة تجنبًا لوقوع أية مشكلات.

صعدت الدرج حتى وصلت إلى الشقة بالطابق الرابع، شعرت أن نفَسي قد انقطع، فتحت الباب بصعوبة، واستلقيت على أول أريكة

أمامي، كان صدري يعلو ويهبط بقوة، في هذه الأثناء جاء «بلال» مسرعًا وعانقني، فقلت له وأنا أتنفس بصعوبة، أحضر لي كوب ماء، سمعني «أحمد» فخرج من الغرفة وأسرع إلى المطبخ، وأحضر لي كوب الماء الذي طلبت، أخذت أتجرعه بصعوبة، حتى ارتويت ثم سلمته الكأس، فخاطبني قائلا: «ما بكِ؟ هل هناك من خطب؟»، لم أجب، لم أدرِ ما أقولّ، ولم أكن قادرة على الكلام حتى، طأطأت رأسي أرضًا وأمسكت رأسي بيدي الاثنتين، فسألني مرة أخرى: «كيف حال والدك؟ وكيف كانت نتيجة التحاليل؟ شعرت وكأن خنجرًا يُغرز في صدري جراء هذا السؤال.. هذا ما كنت أخشى أن أسمعه، ولا أحب الجواب عنه، حتى أن لساني توقف عن الكلام، عاد «أحمد» يسأل مرة أخرى بإلحاح: «هيا أخبريني ما بكِ، هل واجهت مشكلات مع الشرطة؟»،

رفعت رأسي، وحركته يمنة ويسرة لأجيب بالنفي، فبادر قائلًا: «إذن، ما بكِ؟»، بلعت ريقي بصعوبة، وحاولت أن أستعيد رباطة جأشي لأحاول الإجابة، قلت بصوت مخنوق بالبكاء: «أبي مصاب بالكورونا».

فقال مندهشًا: «هل هذا الخبر أكيد فعلًا؟»،

أومأت برأسي قائلة: «أجل إنه أكيد»،

قال مشفقًا: «المسكين، لو أن شركتهم توقفت عن العمل، ما كان ليصاب بالفيروس، قلت متلعثمة وأنا أمسح دموعي المنهمرة: «لا أحد يعلم أين ومتى يصيبه هذا الفيروس؟»»،

قال موافقًا: «أجل، فنحن لا ندري أين يمكن أن يكون، هو فيروس متناهي الصغر، وقد يوجد في جميع الأمكنة؛ في بيوتنا، في الهواء الذي نتنفسه، على الأجساد، والأجسام، والأسطح، وحتى في أثناء الخروج، يتنقل معنا بجميع أنواع المواصلات».

قمت وصليت الظهر، وبعد ذلك استلقيت على السرير، سألني «أحمد» قائلًا: «هل أكلتِ شيئًا عند والدتك؟»، أجبت بالنفي، فقال: «لقد أعددت كفتة اللحم بالبيض، حاولي أن تأكلي قبل أن تنامي»،

أجبت وأنا أجرُّ اللحاف لأغطي جسمي بعد أن أحسست برعشة باردة تسري في كل جسدي: «ليست لي رغبة بالأكل الآن، أريد أن أنام فقط».

أغمضت عينيّ أستجدي النوم، لكن بلا جدوى، فرأسي كان يؤلمني بدرجة لا تُطاق، أخذت حبة اسبرين، وظللت أحاول حتى غفوت، لم أستيقظ إلا عند الثامنة مساء، كانت الشرطة تجوب الشارع للتحذير من خطورة الفيروس، وتدعو إلى عدم الخروج إلا للضرورة، قمت من السرير محبطة، وجدتُ «أحمد» يشاهد التلفاز، ذهبت وتوضأت وصليت، ثم دخلت المطبخ بعد أن أحسست بجوع شديد، وتناولت غذائي، بعد ذلك أعددت صينية الشاي وجلست بالصالة أشاهد نشرة الأخبار، التفت نحوي «أحمد» وقال: «ألاحظتِ كم أمسى الشارع هادئًا هذه الأيام، إن هذا الحجر نعمة ما بعدها نعمة، وخصوصًا هنا بالمدينة، لا ضجيج سيارات، ولا دراجات نارية تطن بأزيزها طوال النهار والليل، ولا زعيق للسكارى والمتسكعين»، غصبت ابتسامة على وجهي وقلت: «هذا ما كنت تبحث عنه دائمًا وتتمناه، أليس كذلك؟»،

رد مبتسمًا: «أجل، فأنت تعلمين كم أحب الهدوء، ولولا عملنا بالمدينة، لما جلست بها ساعة واحدة»، وبينما نحن نتحدث سمعنا وزير الصحة يوضح قائلًا: «إن عدد الإصابات بالفيروس في ارتفاع مستمر، وانتشاره السريع قد فاق كل التوقعات، والوضع بالبلاد أصبح يستدعي القلق، لذلك ستعمل الدولة على استيراد مجموعة من

أجهزة التنفس الاصطناعي، وكذا الأسرة والأنابيب الطبية، وندعو المواطنين للالتزام بالإجراءات الوقائية من أجل الحفاظ على سلامتهم»، ثم انتقلوا للحديث عن موضوع جديد يتعلق ببحث العلماء والخبراء عن دواء مستعجل للمصابين، وكذلك البحث عن لقاح مضاد للفيروس، يجنب العدوى للأشخاص غير المصابين به، تذكرت من جديد إصابة والدي فاغرورقت عيناي بالدموع، واكتأبت نفسي لدرجة لم أعد أرغب في سماع أي شيء يتعلق بالوباء، فقد أصبحنا ننام ونصحو على أخباره كل يوم، قمت ودخلت المطبخ وبدأت في إعداد ما سنتناوله وقت السحور، وبعدما أنهيت ذلك، ذهبت مباشرة إلى السرير محاولة استجداء النوم.

الفصل السابع

(الخميس 19 مارس 2020)

في صباح أول يوم من رمضان، استأذنت زوجي وخرجت لزيارة والدي، في طريقي مررت بالسوق، واشتريت كيلوغرامين من البرتقال، ونصف كيلوغرام من الليمون، ثم دخلت إلى إحدى المعشبات واقتنيت قليلًا من الزنجبيل والقرنفل، كنت قد سمعت العديد من أطباء التغذية يوصون بتناولها عند الإصابة بالفيروس لتقوية الجهاز المناعي، لما وصلت إلى المنزل سلمت على أمي وهنأتها بقدوم رمضان المعظم، ثم سألتها عن أبي، فأخبرتني قائلة: «لقد ارتفعت حرارته البارحة، وأصبح يسعل بقوة، وفجأة أغلق عليه غرفته، ومنعني من دخولها مجددًا، وعند السحور ناولته صينية الطعام فطلب أن أضعها بجانب الباب وأذهب حتى لا تصيبني العدوى، قاطعتها قائلة: «نعم لقد نصحه الطبيب بالأمس بحجر صحي داخل غرفته، لمدة 14يومًا، حتى لا ينقل العدوى لأحد، حاولي أن تعقمي يديك بعد أخذك

لصينية الطعام منه، أو أي شيء آخر قد قام بلمسه، قالت موافقة: «أجل، إني أقوم بذلك طبعًا»، سكتت ثم أضافت : «كم يقلقني وضعه يا ابنتي!»، اغرورقت عيناها بالدموع وهي تقول: «لقد تناولت البارحة السحور وحدي، لم يحدث لي ذلك قط في حياتي»، ربتُّ على كتفها وسألت: «لِمَ لَمْ ينزل عصام وزوجته للجلوس معك؟»،

أجابت بحنق: «لم يكونوا على علم بحالته تلك»،

قلت وأنا أفتح الأكياس التي أحضرتها: «لقد اشتريت بعض البرتقال، سأذهب وأصنع له كوب عصير»،

ردت مسرعة: «لا تتعبي نفسك، فهو صائم الآن»،

قلت غاضبة: «لا ينبغي أن يصوم وهو مريض!»، ردت مسرعة: «قلتها له، ولكنه يصر على الصيام»،

في هذه اللحظة قصدت باب الغرفة، وطرقت الباب بهدوء، فسمعته يسأل: «من الطارق؟»،

فقلت: «هذا أنا يا أبي، زينب، كيف حالك الآن؟»،

أجاب متلعثمًا: «الحمد لله، أحس ببعض الحرارة الخفيفة داخلي فقط»،

سألته: «أما زلت صائمًا يا أبي؟»،

أجاب بصوت مبحوح: «أجل»،

قلت موضحة: «لا يجب عليك أن تصوم وأنت مريض، فالله – سبحانه وتعالى– منح المريض رخصة حتى يُشفى كما تعلم»،

رد قائلًا: «ولكنني لا أشعر بالمرض الآن، قليل من الحرارة فقط»،

قلت: «جسمك الآن بحاجة إلى السوائل، حتى تنخفض الحرارة»، سكتُّ ثم استطردت قائلة: «والدواء؟، ألن تشربه أيضًا؟!»،

قال: «لا دواء لهذا الفيروس، هي مجرد مسكنات للآلام، وفيتامينات مقوية، ليست ضرورية الآن البتة»، تذكرت أنه لطالما كره شرب الدواء، حتى ولو كان مرضه شديدًا، فكيف سيقبل بشربه الآن وهو صائم. قلت: «أأصنع لك كوبًا من عصير البرتقال؟ إنه مغذٍّ ومقوٍّ في الوقت نفسه».

قال: «لا تفعلي إني صائم الآن، وعند الإفطار سأحاول شربه –إن شاء الله–».

لم أرد أن ألح عليه أكثر وأقلقه، فاستسلمت، وتركته متمنية له الشفاء.

في المساء، بعد أذان المغرب، أدينا الصلاة، وجلسنا نتناول وجبة الإفطار بينما نشاهد التلفاز، كنا متشوقين لرؤية ما ستعرضه التلفزة من برامج رمضانية، وخصوصًا الأعمال الفكاهية، كنا بحاجة إلى الترويح عن أنفسنا عوض الانغماس في الأحزان، لكن للأسف فوجئنا بأن كل البرامج المعروضة خلال هذه السنة كانت مكررة، وقد سبق عرضها في سنوات سابقة، فبحثنا في قنوات أخرى عن برامج لم يسبق لنا مشاهدتها، لأن الرتابة تكاد تخنقنا هذه الأيام، قال زوجي موضحًا: «كل البرامج التلفزية الآن مكررة، لا جديد يُذكر هذه السنة».

قلت مستفسرة: «بسبب الحجر، أليس كذلك؟».

أجاب وهو يومئ برأسه موافقًا: «أجل، فبعد فرض الحجر الصحي، وقرار الإغلاق، توقف الفنانون عن العمل، ولا شك في أن استوديوهات التصوير قد أُغلقت أيضًا»،

قلت مطأطئة برأسي: «أجل هذا صحيح»،

بعد هنيهة سمعنا المؤذن يؤذن لصلاة العشاء، رفع «أحمد» رأسه وهو يقول بحرقة: «أمر مؤسف، هذا العام لن نصلي التراويح بالمسجد، ولا حتى الصلوات المفروضة»،

قلت بحنق: «أجل، هذا الوباء، غير حياتنا تمامًا، لم أحس أبدًا بأجواء رمضان، كما كنا نعيشها سابقًا، أتذكر تلك الأجواء الروحانية التي كانت تسمو بنفوسنا وترقى بها عن كل أدران الحياة، حيث أبواق المساجد تصدح من بعيد، والناس تحج من كل حدب وصوب، رجالًا ونساءً لأداء صلاة التراويح، إضافة إلى فرحة الأطفال وهم يلعبون ويمرحون بالأزقة إلى وقت متأخر من الليل، الآن للأسف الشديد كل ذلك مغيب عن حياتنا هذا العام»،

قال موافقًا: «نعم، فرمضان هذه السنة له طعم خاص، وكما يقول المثل: دوام الحال من المحال».

جلسنا نشاهد نشرة الأخبار المسائية، تم الإعلان أخيرًا عن اكتشاف لقاحات مضادة لفيروس كورونا المستجد، تحد من انتشاره، ومن ثَم تقلل من نسب الوفيات، أهم هذه اللقاحات تم اكتشافها

بكل من الصين وأمريكا وألمانيا وسيتم تسخيرها لإنقاذ العالم أجمع، حيث ستقوم بتصديرها للعديد من الدول عبر العالم، لكن للأسف هذه اللقاحات لا تُمنح للأشخاص المصابين بالفيروس، لأنها قوية المفعول وتحتاج إلى مناعة جسم قوية لتتفاعل مع المحلول، وكذلك لا تُمنح للنساء الحوامل، وكذا الأشخاص الذين تجاوز سنهم سبعين سنة.

الفصل الثامن

(الأربعاء 25 مارس 2020)

مر أسبوع على إصابة والدي بالكورونا، كل يوم تزداد أعراض المرض ظهورًا، وحالته تسوء أكثر فأكثر، غدت حرارته مرتفعة على الدوام، والسعال أصبح يشتد عليه إلى درجة الاختناق، كما فقد حاستَي الشم والذوق، وفقد معهما شهية الأكل أيضًا، كنا نسمعه أحيانًا يئن ويتوجع بصوت واهن مبحوح، ويسعل حتى يتقيأ.. كم كنا نتألم! وما كان يزيد من ألمنا وحزننا عليه هو أننا وعلى الرغم من تواجدنا بالمنزل، إلا أننا كنا لا نراه، كنا لا نعرف وضعه الصحي عن قرب، كنا لا نستطيع الدخول إلى غرفته، فلا نتواصل معه إلا بالهاتف، المشكلة أنه كان إنسانًا صبورًا إلى أبعد الحدود، وكتومًا لدرجة لا تُتصور، والمشكلة الكبرى في كل ذلك، هي أنه يكره شرب الدواء، ولا يحب الذهاب إلى المستشفى بتاتًا.

في المساء بعد الإفطار سمعنا سيارة الشرطة تمر من الشارع تحذر من الخروج معلنة بدء حالة الطوارئ، وبعد مغادرة الشرطة وابتعاد سيارتهم عن دربنا، بعدها مباشرة سمعت هاتفي المحمول يرن، قمت من على المائدة مسرعة لأجيب، كان صوت أخي «عصام»، تفاجأت من نبرة صوته التي كانت تعلوها الكآبة فقال: «السلام عليكم يا أختاه، كيف حالك وحال زوجك والأبناء؟»، أجبت مسرعة حتى يفصح عما يريد قوله لي: «الجميع بخير»، قال مرتبكًا: «أريد أن أحدثك بشأن والدنا»، سكت ثم أردف قائلًا: «أنت تعلمين أن وضعه الصحي ساء كثيرًا هذه الأيام، وخصوصًا اليوم بالذات، حيث لم يعد يستطيع بلع الطعام، لربما بسبب التهاب شديد في الحلق أو البلعوم»،

أجبت بصوت مخنوق وقد اغرورقت عيناي بالدموع: «أجل، لقد كنت هناك صباحًا، وأخبرتني أمي أن وضعه يزداد سوءًا، وأن ذلك الحجر في غرفته ما زاده إلا تدهورًا وضعفًا»، قال مؤكدًا: «أجل، وضعه الصحي لم يعد يبشر بخير، ويجب أن نتحرك ونأخذه إلى المستشفى قبل فوات الأوان»،

قلت موافقة: «نعم، هذا ما علينا فعله، وهذا ما قلته لأمي صباحًا»،

سألني بحدة: «هل لديك الرقم الهاتفي للطبيب الذي يعمل بالشركة»،

أجبت: «لا، إنه يوجد بسجل المكالمات على هاتف أبي بالغرفة»،

قال آسفًا: «كيف سنحصل عليه الآن يا ترى؟ يجب أن نتصل بالطبيب ليحضر سيارة الإسعاف، بدون أن يعلم والدي بذلك»، صمت وقال مستطردًا: «أنت تعلمين أنه لا يحب الذهاب إلى المستشفيات»،

قلت بحنق: «أجل أعلم ذلك، ولا بد أن نفكر في طريقة ما لإحضار الإسعاف غدًا صباحًا»،

قال موافقًا على كلامي: «أجل، هذا ما اتفقنا عليه أنا و«وفاء»، لا بد من أخذه غدًا صباحًا إلى المستشفى، إذا لم نحصل على الرقم الخاص بالشركة، فستتصل «وفاء» بسيارة الإسعاف الخاصة بمرضى كورونا لنقله –إن شاء الله–»،

قلت مؤكدة: «سأفكر في حل ما، وأخبرك به على السريع»،

قال موافقًا: «حسنًا، سنبقى على تواصل»، انقطع الخط وجلست مشوشة الذهن مرتبكة، وأحسست بقشعريرة تسري في جسدي، وأن

الجو ازداد برودة، خطرت لي فكرة جهنمية للحصول على هاتف أبي، فحاولت الإسراع لتنفيذها، كانت الفكرة هي أن أذهب إلى المنزل، وفي ذلك الوقت يتصل «عصام» بأبي ليطمئن عليه، ومن ثَم أدخل أنا الغرفة وأطلب من أبي التحدث مع «عصام» على الهاتف في أمر مهم، ومن ثَم أطلع على الرقم الهاتفي الخاص بالطبيب.. فكرت أنه من الأفضل أن تتكلف الشركة وتتحمل نفقات علاجه، ما دام قد أُصيب بعدوى الفيروس في أثناء مزاولته للعمل بها، كتبت لـ«عصام» رسالة على الهاتف أخبره فيها بالخطة، على أن يتصل بي بعد نصف ساعة تقريبًا، قمت مسرعة وارتديت عباءتي السوداء وحجابي المنمر، ثم وضعت الكمامة على وجهي، لكن ما أن هممت بالخروج، حتى سمعت الأمطار بدأت بالتساقط، يا إلهي! ما هذا النحس الذي يصيبني هذه الأيام؟! حتى الجو بدأ يتكالب علي! عدت وحملت المظلة، ثم انطلقت نحو الشارع مهرولة وكلي حماس وأمل بأن أنفذ فكرتي بنجاح، فلم يتبق وقت لنضيعه، يجب أن نسارع في إنقاذه، سأدخل غرفته هذه المرة، وليكن بعدها ما يكون، حتى ولو صادفني الموت فلن أبالي.

خرجت إلى الشارع المظلم، الذي لم تكن تضيئه إلا بعض المصابيح القليلة باهتة الضوء، كان خاليًا تمامًا، يغرق في صمت رهيب، وكأن الحياة قد توقفت به؛ كل الأبواب مغلقة ولا أثر لإنسان، وكأني في حي

لا يسكنه سوى الأشباح، لا يكسر سكونه غير صوت الأمطار التي ما زالت تتساقط، جلت بعيني القلقتين يمنة ويسرة، ثم انطلقت أسرع الخطى باتجاه منزل والدي، قطعت الشارع إلى آخره، وفجأة برق البرق وقد رسم خيوطًا من نور على صفحة السماء، ثم هدر الرعد مزلزلًا في الأرجاء، وبعده اشتد المطر، حمدت الله أنني حملت المطرية معي، على الأقل تحمي رأسي ووجهي من ضربات المطر التي كانت تتهاطل كالصخر، عرجت إلى الشارع الآخر، وواصلت المسير، لكنني بدأت أتعثر المرة تلوى الأخرى، حتى كدت أسقط، فعباءتي الطويلة صارت مبللة بالكامل، وأضحت تلتصق بساقَيّ، أما حذائي الأسود فأصبح كمركب يغرق وتطفو عليه قدماي، اللتان لم أعد أحس بهما داخله من شدة البرد.

جاهدت نفسي وأخذت أجر قدميّ الثقيلتين على الأرض، حتى وصلت إلى باب المسجد، الذي كان الضوء ينبعث من نوافذه المزركشة الألوان، توقفت عن المسير، واحتميت تحت السقيفة، وأغلقت مطريتي، ووضعتها بجانبي على الحائط، واتكأت على الباب أسترجع أنفاسي إلى أن تخف وطأة المطر، أخرجت نفسًا عميقًا، ونظرت حولي إلى الشارع الخالي من أي حياة، والأزقة المظلمة التي تبعث على الخوف والكآبة، تمنيت لو أن الماضي يعود، اشتقت إلى

حياتنا الماضية بحلوها ومرها، والتي مهما ساءت، فلن تصل إلى ما نحن عليه الآن، أخذت بطرف العباءة من الأسفل، وبدأت أعصر ما علق به من ماء، ثم نظرت نحو الأسفل باتجاه قدمي المبللتين، وأنا أتأسف على زوجَيْ حذائي اللذين لا شك أنهما تفتقا بالكامل، حينئذ لمحت ضوءًا متسربًا من تحت باب المسجد، فوضعت إحدى أذني على بابه الخشبي، وأصخت السمع...

كان الإمام بالداخل يتلو آيات من القرآن الكريم بصوت كله خشوع وابتهال، وقد أغلق الباب عليه، حتى لا تسول لأحد نفسه بدخول المسجد بعد فرض الحجر الصحي، بقيت أنصت فشعرت بالسكينة تغشى روحي الحزينة، ولم أشعر إلا والدموع تنهمر على خدي المبللين بماء المطر.

تأسفت على الحال الذي وصلنا إليه مع هذا الوباء، حتى بيوت الله أُغلقت في وجوهنا، فعلى الرغم من أنني لم أعد أصلي به كثيرًا منذ إنجابي لابني «بلال»، فإنني شعرت بالحزن على إغلاق أبوابه، فقد كنت أذهب إليه صحبة أمي لأداء صلاة التراويح في رمضان، وأحيانًا لأداء صلاة الجمعة.. لقد حُرمنا حقًّا من نسماته الروحانية، وخاصة في هذا الشهر الفضيل.

بعد هنيهة تذكرت الهدف الذي خرجت من أجله، وأنه عليَّ مواصلة المسير، فلم يعد أمامي مزيد من الوقت، أخذت المطرية وفتحتها، لأن المطر ما زال يتساقط، لم أره يتساقط بهذه الشدة من قبل، بدا وكأن السماء غاضبة علينا هذه الأيام، لقد غرقت كل الأزقة والشوارع، وأُغلقت الميازيب الموجودة بالحي، بسبب القمامة والأكياس البلاستيكية المترامية هنا وهناك، واصلت المسير، كنت أحس بقدميَّ تطفوان على الماء، خشيت أن أغرق في بركة من البرك المنتشرة في أرجاء الحي، سرت على الرصيف حتى لا أقع في واحدة منها، لكن للأسف حتى الرصيف توجد به بعض الحُفَر، وبعضه مرصوص وبعضه الآخر لا...

وصلت إلى أحد الأزقة الضيقة غير المرصوصة، لم يتبقَّ أمامي إلا أن أسلك هذا الزقاق، وبعده أصل إلى المنزل، رغم الظلام الحالك، لم يكن صعبًا عليَّ تتبع الطريق، فقد كنت أحفظها عن ظهر قلب، لما عبرت داخله شعرت بالخوف يتملكني، فالمرور من هذا الزقاق الطويل الموحش، وفي هذا الوقت المتأخر قد يكون أمرًا في غاية الخطورة بالنسبة لي كامرأة، لم يسبق لي أن خرجت وحدي في مثل هذا الوقت، في الماضي كنا نمر به للذهاب إلى المسجد لأداء صلاة التراويح، كان الجو مختلفًا تمامًا، حيث حركة المرور لا تتوقف به أبدًا، وكان الأمان

والسكون، وكأن ملائكة الرحمن كانت تحرسنا، وتنير طريقنا في الذهاب والمجيء...

أما الآن فالزقاق ساكن تمامًا كمقبرة، شديد الظلام، لا بصيص من نور لقمر أو نجوم، تكاد الرؤية تنعدم، لأن السماء ملبدة بالغيوم، وأغلب النوافذ مغلقة بسبب الأمطار، سرتُ أجرُّ قدميَّ بصعوبة وأنا أتهادى في الظلمة، وأحاول أن أتقدم شيئًا فشيئًا، فأنا لم أكن جريئة بطبعي، بل كنت أخاف حتى من ظلي إذا مشيت في الليل، بدأت أسرع الخطى، وأشجع نفسي على المسير في الظلام، حتى وصلت إلى المنتصف تقريبًا، فجأة لمحت شبحًا أسودَ يجري في اتجاهي من بعيد، لا بد أنه كلب، آه، كم أخاف الكلاب!!

لقد كنت محقة في اعتقادي، إنه كلب فعلًا، لقد سمعت نباحه يتردد في الزقاق، ماذا سأفعل الآن؟ هل أعود أدراجي من حيث أتيت؟، فكرت في الأمر، لكن ما لبثت أن تراجعت عن هذه الفكرة، وبدأت بتشجيع نفسي على مواصلة الطريق، قررت أنه لا طريق للعودة، وأنه لا تراجُع أبدًا بعدما أشرفت على الوصول، سمعت نباحه يقترب أكثر فأكثر، فكرت أن أعود إلى الخلف حيث بداية الزقاق وأختبئ ريثما يمر هذا الكلب المشؤوم، لكن وللأسف الشديد فور أن بدأت في

تنفيذ فكرتي وتراجعت خطوتين إلى الوراء، سطع فجأة ضوء مصباح كاشف تجاهي من بعيد، ولمحت شبحًا يتجه صوبي، وقد أطلق صفارة إنذار من فمه يدعوني إلى التوقف!

شعرت أن قلبي سيسقط بين قدمي، وتجمَّدَ الدمُ في عروقي من فرط الذعر والخوف، فكرت بالهرب، استدرت وبدأت أسرع الخطى مبتعدة، فجأة سمعت وقع خطواته السريعة نحوي، وهو يأمرني بغلظة: «أنت!، توقف وإلا أطلقت النار!»، بدأ الصوت يتردد صداه في الزقاق الضيق، أخذت أنفاسي تتسارع، وقلبي يكاد يتوقف عن النبض، لم أعد أدري ما أفعل!، تسمرت مكاني، وقدماي لم يعد باستطاعتي تحريكهما من شدة الخوف والبرد، كنت أتطلع إلى مصدر الصوت وسط الضباب والظلام الدامس، فلم أكن أبصر غير أشباح قادمة في اتجاهي، قلت في نفسي: «لا بد أنه شرطي، فلا يحمل السلاح غير رجال الشرطة، أووف، هذا ما كنت أخشاه دائمًا»، مرت دقائق معدودة، فإذا بالكلب الأسود يقف أمامي وهو ينبح بشدة كالمسعور، للحظة خلته سينقض عليَّ، بدأت أصرخ من شدة الفزع، فرأيت بعض النوافذ بالدرب تفتح، ويمد الناس رؤوسهم عبرها ليستطلعوا ما يحدث، بعد سماعهم لصراخي، بدأت الرؤية تتضح بعض الشيء، من خلال بصيص الضوء الذي انبعث من النوافذ...

فجأة وجدت الشرطي يقف أمامي مباشرة، وهو يسلط ضوء كشافه على وجهي، ثم سمعته يقول باستهزاء وهو يشد شعر شاربه: «أنت فتاة إذن!»، اقترب مني وهو ينظر إليَّ بعينيه الجاحظتين: «أخبريني الآن، ماذا تفعلين هنا أيتها الفتاة؟»، بقيت صامتة لا أقوى على الكلام، في هذه اللحظة، لحق به شرطي آخر، أصغر منه سنًّا، كان هو الآخر معه كلب حراسة كبير، يمسكه بسلسلة يحكم القبض عليها بين يديه، التفت إلى صديقه، ثم عاد يصرخ بطريقة آمرة: «بطاقتكِ»، بقيت صامتة جامدة بدون أي ردة فعل، فعاد يكرر طلبه من جديد: «بطاقتكِ الشخصية، أين هي؟ ألا تسمعين، أأنتِ صماء أم ماذا؟»، نظرت إليه مرتعبة، لمحت نجمة حديدية تلمع على سترته في الظلمة، لم أستطع أن أجيب، لكنني حركت رأسي بالنفي، التفت إلى صديقه وهو يضحك باستهزاء ويقول: «أسمعت يا صديقي، إنها لا تتوفر على بطاقة»، نظر إلى صديقه الذي أظنه من الشرطة السرية، لأنه لا يرتدي بذلة رسمية مثله ثم قال بغضب: «وهل لديك ورقة الإذن بالخروج؟»، حركت رأسي مرة أخرى بالنفي، فسمعته ينهرني بسخط: «أأنتِ حمقاء أم ماذا؟!ألم تسمعي يا فتاة تحذيراتنا اليومية لكم بعدم الخروج إلا للضرورة القصوى، وضرورة الإدلاء بورقة استثنائية عند الاضطرار للخروج؟!»، صاح الشرطي ذو العينين

الجاحظتين وهو يشير إليَّ بسبابته: «أنتِ لم تلتزمي بالقوانين، لا تحملين أوراقكِ الشخصية، ولا حتى ورقة الإذن بالخروج، إضافةً إلى كل ذلك خرقتِ حالة الطوارئ الصحية بالليل، وبهذا قد جنيتِ على نفسكِ يا فتاة، وعليكِ تحمل العواقب»، سكت برهة ثم نظر إلى صديقه وهو يغمزه بإحدى عينيه وصاح: «خذها إلى السيارة، لا بد أن تذهب معنا إلى المركز»، صرخت بقوة وأنا أرتجف: «لا، لا، لا يمكنكم أخذي، أريد رؤية والدي إنه مر....»، قبض الشرطي على ذراعي بقوة، لم ينتظر حتى يسمع ما أقول، وأخذ يجرني جرًّا في اتجاه السيارة بآخر الشارع، لم أقوَ على المسير فملابسي وحذائي مبللين بالكامل، وأنا أرتعش من الخوف والبرد، لم يكترث الشرطي لصراخي، كان يأمرني بالتقدم، وعندما لم يكن بوسعي ذلك، أخذ يجرني ويجرني حتى تلطخت ملابسي بالوحل، ويا لسوء الصدف!، لقد كانت سيارة الشرطة تقف بالساحة المطلة على منزل والدي، رفعت رأسي بينما كان الشرطي يأخذني بالقوة نحو السيارة، لمحت بعض الضوء ينبعث من غرفة والدي، بكيت بحرقة مكتومة حتى لا يسمعني أحد من أسرتي أو الجيران، حمدت الله كثيرًا هذه المرة أن الظلام كان شديدًا، وأغلب النوافذ مغلقة، تمنيت ألا يعلموا بما حدث لي، وأن لا يروني وأنا أصعد سيارة

الشرطة كالمجرمين، فالأخبار السيئة تنتشر بسرعة بالحي كانتشار النار في الهشيم.

صعدت درج السيارة بصعوبة، فعباءتي المبللة تعيق حركتي، انحنيت برأسي مقوسة ظهري قليلًا، ثم دلفت إلى الداخل، وصفق الباب ورائي، كانت هذه هي المرة الأولى في حياتي التي أصعد فيها لسيارة شرطة، حمدت الله أنني لم أكن وحدي، فقد كان بها مجموعة من الأشخاص أيضًا، جلست على الكرسي أحسست ببرودة شديدة من تحتي، فقد كانت ملابسي ما زالت مبتلة، وجسدي كله يرتجف، رفعت رأسي وبدأت أمسح دموعي بكم عباءتي، وأنا أسترق النظر إلى الجالسين المغضوب عليهم مثلي في هذه الليلة المشؤومة، محاولة معرفة عددهم، وحسب ما رأيت على ضوء المصباح الخافت بالسيارة، فقد كان عددهم خمسة أشخاص، امرأتان وثلاثة رجال.

لما رأتني المرأة الجالسة جنبي أنظر إليهم، وقد هدأ روعي قليلًا، بادرتني بالسؤال وهي تهمس: «أنت أيضًا لا تتوفرين على ورقة الإذن بالخروج؟» التفت نحوها، فحالتي لم تكن تسمح لي حينها بالكلام، فاكتفيت بأن أومأت لها برأسي بالإيجاب، كانت امرأة أربعينية، تضع حجابًا على رأسها، في نفس تلك اللحظة، سمعت فتاة تجلس بالطرف

الآخر تقول غاضبة: «لا يمكنهم سجننا داخل البيت بدون عمل، ماذا سنأكل؟!، وكيف سنعيش؟!»، كانت فتاة في مقتبل العمر ينسدل شعرها الأسود الحالك على كتفيها، وعيناها براقتان ووجهها شديد البياض من كثرة مساحيق التجميل عليه، كانت تفوح منها رائحة عطر نفاذة، وتلوك العلكة بطريقة سريعة ومسموعة، خمنت أن تكون –والله أعلم– من بنات الليل، تدخَّل أحد الرجال قائلًا: «لا أدري ما أهمية تلك الورقة، فقد كنت قادمًا من العمل وأمسكوني، لا لشيء سوى لأنني نسيت الورقة بجيب السروال بالمنزل»، قالت المرأة بجانبي: «أنا أيضًا نسيتها بالمنزل، وبينما كنت أنتظر حافلة النقل للذهاب إلى العمل، جاؤوا وألقوا القبض علي»، قال آخر: «خرجت فقط لأدخن سيجارة بعيدًا عن أطفالي، لأجد نفسي هنا»، وقال آخر بجانبه وهو يبتسم: «لو علمتم كيف أُلقي القبض عليَّ لضحكتم، فمن شر البلية ما يُضحك حقًّا، توقف وهو ينظر إلينا بعينيه البراقتين ثم أردف قائلًا: «خرجت ألقي القمامة في مكب النفايات، وبعدما رميتها والتفت، وجدتهم ورائي»، ضحك الجميع ثم ساد الصمت.

وصلت السيارة إلى مركز الشرطة، نزل الشرطيان مسرعَين وفتحا الباب، أحدهم قادني أنا والمرأتين، في حين تكلف الشرطي الآخر بالرجال الثلاثة، جلسنا جميعنا على كرسي طويل، كنا كمجرمين

موضوعين رهن الاعتقال، ننتظر لحظة التحقيق معنا، بدأت أسترجع كل ما حدث لي خلال هذه الليلة، اغرورقت عيناي بالدموع تذكرت أنني لطالما كنت عزيزة النفس شريفة، وأن والدي ربياني أحسن تربية، وسمعتي طيبة لا تشوبها شائبة، لكن لماذا رماني القدر هنا يا ترى؟!، لم أتخيل يومًا أنني سأكون في هذا الوضع المخزي الذي لا يليق بإنسانة محترمة مثلي، ولكن كنت أعزي نفسي فأقول: «كل عذاب في سبيل والدي يهون».

سمعتهم ينادون بأحد الأقسام على اسمي فتوجهت إليه لأدخل، فطلب مني أحد الحرس الوقوف بالباب، وأمرني بأن أرفع يدي عاليًا، ثم بدأ بتفتيشي، بعد ثلاث دقائق تقريبا طلب مني الدخول إلى قسم تعمل به إحدى الشرطيات الجميلات، كانت رشيقة القامة، شقراء الشعر، عسلية العينين، بيضاء البشرة، لما رأتني أدخل رسمت ملامح جامدة على وجهها، بدأت أوصالي ترتعد وكأني قمت بجريمة قتل للتو، أشارت بيدها إلى كرسي بجانب المكتب لأجلس عليه، وكأنها رأت ما بدا عليَّ من ارتباك، ثم قالت بصرامة وهي تشبك ذراعيها إلى صدرها: «حاولي أن تهدئي أولًا، ثم أجيبي، مفهوم؟!»، حركت برأسي موافقة، ثم بدأت بسؤالي: «اسمك الشخصي والعائلي، واسم الأب والأم والعنوان؟!»، عندما أجبت عن ذلك كله، قالت: «ارفعي يدك

اليمنى وقولي: «أقسم بالله العظيم أن أقول الحق، ولا شيء غير الحق»، لما أقسمت لها كما طلبت، أخذت تستجوبني، أخبرتها بالقصة التي دعتني للخروج كاملة، من خلال التحقيق أحسست أنها قد تعاطفت معي، ولكنها كانت تحاول إخفاء ذلك جاهدة، في الأخير قالت في صرامة واضحة وهي تشبك يديها على المكتب: «لنفرض أن كل ما قلتِه صحيح، أيستطيع أحد إثبات ما تقولين؟»،

قلت بثقة: «أجل، أخي عصام»،

قالت اكتبي رقمه على الورقة لأتصل به، ثم رفعت هاتفها وطلبت حضوره إلى مركز الشرطة في الحال.

مر وقت ليس بالقليل، حتى رأيت أخي «عصامًا» يدخل من باب المركز مذعورًا، فأشرت له بيدي، لما دخل الغرفة، ابتسمت لأهدئ من روعه، قامت وأخذته إلى غرفة مجاورة، وبدأت تطرح عليه هو الآخر بضعة أسئلة وهو يجيب، وبعد دقائق قليلة، عادت إلى الغرفة رفقة «عصام» الذي كان يبدو سعيدًا، ثم جلست وأغلقت الملف أمامها، ثم دفعت بكرسيها ذي العجلات إلى الوراء، ووقفت مبتسمة وقالت: «هيا، قومي لتذهبي مع أخيك، وحاولي ألا تكرري هذا الخطأ مرة أخرى»،

قمت واقفة وشكرتها، وقبل أن أهم بالخروج قالت: «لا تنسوا أن تستعدوا غدًا -إن شاء الله-، مع الثامنة صباحًا ستأتي سيارة الإسعاف لنقل والدكما إلى المستشفى»،

قلت وأنا سعيدة بذلك: «إن شاء الله سنكون في الموعد»، ثم خرجنا أنا وأخي من المركز، وقد اختلطت عليَّ المشاعر، فما عدت أدري هل أضحك، أم أبكي على كل ما جرى لي هذه الليلة.

لما خرجنا من المركز، كان المطر قد توقف، والريح العاصفة قد هدأت، رافقني «عصام» إلى المنزل، وقد أنار لي الطريق المظلم بمصباح هاتفه، كان غاضبًا بسبب ما تعرضت له من معاناة، قال ساخطًا بينما كنا نسير: «لقد فقدنا حريتنا، حتى الخروج أضحى جريمة يعاقب عليها القانون» بقيت مطرقة برأسي إلى الأرض، ولم أنبس ببنت شفة، حتى أشرفنا على الوصول فقلت: «يجب أن نخبر أبي الليلة بأنه سيذهب إلى المستشفى حتى يستعد، ولا يُصدم أو يُفاجأ بذلك الخبر في الصباح».

قال موافقًا: «أجل، هذا ما فكرت فيه أيضًا، سأذهب الآن وأخبره، حتى يستعد نفسيًّا ومعنويًّا، وسأخبر أمي و«وفاء» كذلك».

عندما وصلنا أمام المنزل، نصحني بأن أذهب وأستريح مما قاسيته اليوم، حتى أستطيع غدًا الحضور باكرًا لتوديع والدي، ثم ودعني وغادر.

عندما فتحت باب الشقة، وجدتها مظلمة، تمامًا، فقد أطفئت بها كل المصابيح، أشعلت الضوء ودلفت إلى الداخل، كان ابني «بلال» يغط في نوم عميق، دخلت غرفة النوم، فوجدت «أحمد» مستلقيًا على السرير، يقرأ على هاتفه المحمول، عندما رآني، سألني وهو ينظر إلى ساعته اليدوية: «ما كل هذا الوقت يا زينب؟ لقد تأخر الوقت كثيرًا!»،

أجبته وأنا أتذكر مأساة ما حصل: «آه لو تعلم ما وقع لي منذ لحظة خروجي من هنا، لم أكن أتخيل أن يحدث لي ذلك ولو في أصعب كوابيسي، لقد كنت في مركز الشرطة الآن»، انتفض «أحمد» من مكانه، وهم جالسًا وقد انعقد حاجباه وبدا عليه الضيق، وسأل: «وكيف وصلتِ إلى هناك؟»، حكيت له القصة كاملة، فكان تارة يتأسف لحالي، وتارة يلومني لأنني خرجت في ذلك الوقت، وتارة يلوم نفسه لأنه لم يرافقني إلى هناك، ثم بعدها كظم غيظه وهو يقول في هدوء: «الحمد لله أن الأمر انتهى على هذا النحو».

ذهبت إلى الحمام واغتسلت، وغيرت ملابسي التي كانت ملطخة بالوحل، ثم دخلت الغرفة واستلقيت على السرير.

لم أستطع النوم خلال الليل، كانت الأمطار تتساقط بقوة، إضافةً إلى ما عانيته، ظل يجتاح عقلي ويشحذ كل تفكيري، وأبقاني مستيقظة لساعات طوال بين الحلم واليقظة، وأعتقد أنني لم أغف إلا ساعتين أو ثلاثة فقط خلال هذه الليلة.

الفصل التاسع

(الخميس 26 مارس 2020)

في اليوم التالي، استيقظت مع بزوغ الفجر، توضأت وصليت، ودعوت الله أن يلين قلب أبي ويقبل بالذهاب إلى المستشفى، جلست أنتظر حتى انقشع الظلام، قرابة السابعة صباحًا.. ارتديت ملابسي، ووضعت الكمامة وخرجت، وأنا في طريقي إلى المنزل، سمعت صوت سيارة إسعاف تحوم في الحي، فانقبض قلبي، وأسرعت الخطى نحو منزل والدي، لقد خشيت أن يذهب أبي إلى المستشفى، دون أن أراه أو أودعه.

لحظة وصولي، لم تكن سيارة الإسعاف قد جاءت بعد، لا بد أنها كانت تنقل مصابين آخرين بالحي، دخلت المنزل وسلمت على أمي وأختي «وفاء» اللتين كانتا جالستين بالصالة، كانت أمي واضعة يدها على خدها، وهي تفكر قلقة، وهالات سوداء ارتسمت دوائر حول عينيها من قلة النوم، سألتها عن حالة والدي فأخبرتني أن وضعه قد

ازداد سوءًا، قالت وهي قلقة: «لم يرغب في تناول الطعام مرة أخرى، انظري إلى صينية الفطور أمام غرفته، ما زالت على حالها كما وضعتها أختك وفاء»، قلت وأنا يائسة: «يجب أن يأكل شيئا، فإعراضه عن الطعام عمل لا يبشر بخير أبدًا»، قمت في هذه اللحظة وطرقت الباب، فأجابني بصوت خفيض مبحوح وهو يسأل: «من؟»، قلت: «أنا زينب»، ثم بادرت بسؤاله: «لماذا لم تتناول فطورك يا أبي؟»، أجاب بحشرجة واضحة في صوته بعدما توقف قليلًا ليسعل: «لا، لا يمكنني ذلك يا ابنتي، لدي التهاب في الحلق والبلعوم، لا أستطيع معه بلع شيء»، قلت: «فلتشرب على الأقل السوائل»، قال رافضًا: «إنها تسبب لي الدوار والقيء أيضًا، لا أستطيع الأكل أو الشرب».

في هذه الأثناء سمعنا سيارة الإسعاف وسيارة الشرطة قد توقفتا، فسألت والدي من وراء الباب: «هل أنت مستعد للذهاب إلى المستشفى؟، لقد حضرت سيارة الإسعاف الآن»، أجاب مستسلمًا: «أجل، ليس أمامي خيار آخر، سأخرج بعد قليل»، أزحت الصينية من على الباب ووضعتها على المائدة بغرفة الجلوس، بعد دقائق جاء أخي «عصام» وزوجته بعدما سمعا صوت سيارة الإسعاف، كانا يرتديان الكمامة على وجهيهما، سلما علينا، ووقفا بالصالة وعلامة الأسى بادية عليهما، عندها فُتح باب الغرفة وخرج أبي، بدا مختلفًا

كثيرًا، وكأنه شاخ عشرين عامًا أخرى؛ على جبينه خطوط تجاعيد غائرة، ووجهه شديد الشحوب، ناتئ عظام الوجنتين، وعيناه ذابلتان في محجريهما، تحيط بهما هالات أرجوانية مائلة إلى السواد، وجسمه أكثر نحولًا، ولحيته الرمادية التي تظهر من جانبي الكمامة صارت أكثر كثافة.. سعل، ثم نظر إلينا بنظرات طويلة حزينة، إنها نظرة اشتياق كبيرة لنا جميعًا، فمنذ ما يزيد على أسبوع، وهو بداخل تلك الغرفة المقفلة، لم نكن نراه ولا يرانا، أو بالأحرى لم نكن نراه مباشرة، بل فقط من وراء الكاميرا عبر شاشة الهاتف المحمول، ونحمد الله كثيرًا على هذه النعمة، فوسائل التواصل الحديثة كانت نعمة بحق في هذه الظروف الصعبة التي عشناها خلال الحجر الصحي، فبدون الهاتف ما كنا لنرى أبي أو نتواصل معه أبدًا، وبدون الإنترنت ما تمكّن التلاميذ من متابعة دراستهم من المنازل، وبدونه ما اشتغل زوجي والعديد من الناس بعد أن فقدوا عملهم جراء الإغلاق، وبدون التلفاز ما استطعنا معرفة تفاصيل الوباء، وسُبل الوقاية منه...، كل هذه التفاصيل الصغيرة التي عشناها خلال هذه الفترة من حياتنا لن ننساها أبدًا.

خرج أبي ووقف على بُعد متر منا تقريبًا، وبقي يتطلع إلينا الواحد تلو الآخر، بعينين حمراوين منتفخين، نادى على أمي، فتقدمت منه بضع خطوات لتقف في مواجهته، ثم قال لها بصوت واهن حنون بعد

أن نظر إليها مطولًا: «أريد منك يا «فاطمة» أن تسامحيني على كل شيء»، سكت ثم قال بحنو: «سامحيني إذا أغضبتك أو ظلمتك، أو قصرت في حقك يومًا»، نظرت إليه بحزن وقد اغرورقت عيناها بالدموع والتي فشلت في كبحها، فانهارت على خديها، وقالت وقد تحشرج صوتها من شدة التأثر: «لا تقل هذا الكلام يا «مصطفى»، إني أسامحك على كل شيء، ما علمته عنك وما لم أعلمه، لا تخاف ولا تقلق، إنها محنة وستزول، ستُشفى وستعود معافى إلى البيت عما قريب –إن شاء الله–»، رد بصوت مبحوح: «هذا ما عهدته فيك دومًا يا «فاطمة»، طيبة القلب متسامحة، وقوية الإيمان بالله، وبنت أصول والله».

ثم حول نظره إلى «عصام» وقال له ناصحًا: «أوصيك يا بني، أن تكون عوضًا عني في غيابي، فأنت رجل هذا البيت من بعدي، اهتم بأمك، وأخواتك الاثنتين، وحاولوا أن تبقوا مجتمعين متضامنين مهما كانت الظروف والأحوال»، توقف وهو يسعل، فبادر عصام قائلًا بثقة: «اطمئن يا أبي، سأهتم بهم جميعًا، المهم أن تعتني بصحتك، وتعود إلى المنزل في أقرب وقت»، وقبل أن يتم «عصام» كلامه، سمعنا جرس سيارة الإسعاف يرن ليستعجل أبي بالخروج، نظر بقلق إلى الباب الذي ظل يتردد فيه الصوت ثم تطلع إليَّ طويلًا بنظرات ملئُها الحزن،

سلمته مصحفًا كنت قد أحضرته معي من المنزل، ثم قلت له بصوت متحشرج: «حاول أن تقرأ فيه متى استطعت ذلك»، أخذه مني وقبله، ووضعه على جبهته ثم صدره، وقال: «شكرًا لك يا ابنتي، سأفعل ذلك -إن شاء الله-»، ثم نظر إلى وفاء من بعدي بنظرات حزينة وقال: «اهتموا بأنفسكم، وبوالدتكم دائمًا، وادعوا لي بالشفاء، سأشتاق إليكم كثيرًا، إني أحبكم جميعا»، دمعت عيناه، فحاول إخفاءهما عنا واستدار بسرعة، وأخذ يدير بصره في كل ركن من أركان المنزل، ثم خطا بضع خطوات وئيدة نحو الباب، ثم عاد والتفت مرة أخرى يشيعنا بنظرات أخيرة ملئُها الحزن والأسى، حتى لم يعد بإمكانه الاحتمال، وبعدها خرج، كنا جميعنا نذرف الدموع مدرارًا، حتى أخي «عصام» لم يتمالك نفسه هو الآخر كان يبكي...

إنها للحظات صعبة مهيبة يعجز اللسان عن وصفها، أقرب وأحب الناس إلينا يعاني ويتألم ولا نستطيع مواساته أو معانقته وتوديعه، كم هذا الموقف مؤلم لنا وله أيضًا!، لن يستشعره المرء إلا إذا ذاق مرارته، تذكرت في هذه اللحظة أجدادنا القدامى الذين سبق لهم أن عانوا مثل هذه الأوبئة، تذكرت ما درسته، وما أخبرني عنه والدي بخصوص وباء الطاعون والجدري وما خلفاه من مآسٍ ومعاناة لدى الناس، لا بد أنهم عانوا وقاسوا أكثر مما نعاني ونقاسي الآن...

خرج بخطوات متثاقلة وهو يمسك بحائط السلم مخافة أن يسقط، خرجنا من ورائه نتتبعه بنظراتنا، عند مدخل باب المنزل، كان أحد يقف المسعفين ببدلته الجلدية البيضاء، تغطي كامل جسمه من رأسه حتى أخمص قدميه، عندما وقف أبي بمحاذاته رحب به، للتخفيف من روعه قليلًا، ثم طلب منه أن يفتح كلتا يديه ليرشهما بمحلول معقم وبعد ذلك أمسك بيده، آخذا إياه باتجاه سيارة الإسعاف، خرجنا نلحق به، ففوجئنا بحشد كبير من الناس قد تجمهروا أمام باب المنزل، صعد والدي إلى سيارة الإسعاف، نزلت أمي الدرج وهي تحمل حقيبة تحتوي على ملابس، ومعجون أسنان وفرشاة، أسرع المسعف وأخذ منها الحقيبة ووضعها بجانب والدي بالسيارة، كنا ثلاثتنا نقف أمام الباب نرقب هذا المشهد الذي لم نعهده يومًا، بعد دقائق عاد المسعف باتجاهنا، وسلم لأخي ورقة بها اسم المستشفى وعنوانها، ثم سأله بصوت هامس: «أتعرف مستشفى مولاي يوسف بمركز المدينة؟»، أجاب أخي قائلًا: «أجل إني أعرفه»، قال المسعف: «إذا أردتم زيارته فستجدونه بهذه المستشفى». سأله عصام مصدوما: «ألن يرافقه أحد منا الآن»، أجاب المسعف: «لا، لا يمكنكم ذلك، حفاظًا على سلامتكم، فالفيروس شديد العدوى كما تعلمون».

أنهى كلامه ثم بدأ يخطو في اتجاه باب السيارة لإغلاقه، في هذه اللحظة أسرعت أمامه باكية وأردت إلقاء نظرة أخيرة على أبي، إلا أن الشرطي منعني من ذلك، وأغلق الباب، وأطلقت هذه الأخيرة صافراتها مدوية في المكان، وارتمى الشرطي بعد ذلك في سيارة الشرطة وانطلقا معا يشقان طريقهما نحو المستشفى وهما يتمايلان ويهتزان بفعل المطبات الموجودة بالطريق، انتابني شعور سيئ داخلي، وأفكار سوداء بدأت تتزاحم في سراديب عقلي، أنني لربما لن أرى أبي ثانية، فجأة وجدتني أركض كطفلة نحو السيارتين، وأنا أنتحب وأصرخ وأطلب أن تتوقف الإسعاف، ولكنني في هذه اللحظة انزلقت رجلاي بوحل من الطين، فسقطت على الأرض، حتى ذقت طعم التراب، بقيت ساجدة على ركبتي أبكي وأنتحب وقد اختلط ريقي بدموعي المنهمرة، فجأة أحسست بيد تربت على كتفي، ثم سمعت صوت أخي «عصام» يقول: «زينب! حاولي أن تتماسكي، وقومي لنلحق بهما، لقد أخرجت سيارتي من المرآب»، رفعت رأسي نحوه، وقد استحسنت الفكرة، أمسكني من ذراعي وساعدني على الوقوف، وفي طريقنا إلى السيارة أخرج من جيبه منديلًا ورقيًّا وناولني إياه، فأخذت أنظف به وجهي، ثم يدي، وأمسح ما علق بملابسي من وحل، عندما وصلنا إلى السيارة، وجدت بابها الخلفي مفتوحًا فارتميت داخلها، كانت أمي

جالسة بالمقعد الأمامي، فقالت بنبرة حانية: «لا تبكي يا ابنتي، يجب أن تكوني قوية، فهذا ابتلاء من الله، ويجب أن نصبر»، تحركت بنا السيارة سريعًا حتى وصلنا إلى مركز المدينة، كانت الشوارع مكتظة، ولذلك لم نقتف أثر السيارة التي كانت تنقل والدي، فقد صادفنا في طريقنا العديد من سيارات الإسعاف البيضاء التي أضحت معروفة لدى الجميع بنقل المرضى المصابين بفيروس كورونا، تسير في اتجاه المستشفى فظللنا نتبعها حتى وصلنا إلى المكان المنشود.

عندما توقفت سيارات الإسعاف، وكان عددها سبعة تقريبًا، فتح الباب الحديدي المؤدي لقسم المستعجلات، وخرج منه العديد من رجال الإسعاف ويحملون النقالات ذات العجلات، وشرعوا بنقل المصابين الواحد تلو الآخر، ترجلنا من السيارة واقتربنا من الباب الحديدي، وبقينا نتطلع إلى المصابين، ونبحث عن والدي من بينهم، حتى تمكنا من التعرف عليه من خلال سترته الرياضية ذات اللون الأحمر والأبيض.

بدأ أحد المسعفين بدفع نقالته اتجاه المدخل، وحاولت أن أتقدم أنا وأخي «عصام» وثلاث نسوة أخريات، لكن حارس الأمن منعنا وشرع في إغلاق البوابة، وخاطبنا بصوت خشن من وراء القضبان الحديدية

قائلًا: «لا يمكنكم الدخول، فهذا الجناح الخاص بمرضى الكورونا خطر جدًّا، ويُمنع منعًا باتًّا الولوج إليه، أو زيارة المصابين بالفيروس»، سقطت علينا كلماته كالثلج، وتجمدت ألسنتنا عن الكلام، صرخت امرأة تقف بجانبي وهي تمسك على القضبان بقوة وتهزها هزًّا: «افتح لي الباب من فضلك، أريد أن أرى زوجي حالًا، لا يمكنك منعي من ذلك»،

أجابها الحارس غاضبًا: «قلت لكم أن هذا ممنوع، فالعدوى تسري في المكان كله، ولا أحد يُسمح له بالدخول إلى هناك، ما عدا الأطباء والممرضين، بعد أن يرتدوا اللباس الواقي من العدوى طبعًا»،

سألتْ أمي وهي تقف خلفنا: «وكيف السبيل إلى زيارتهم إذن؟»،

أجاب موضحًا: «غدًا صباحًا سيُسمح لكم بمقابلة الطبيب المعالج، وسيوافيكم بكل التفاصيل عن وضعهم الصحي، كما يمكنكم رؤية المرضى من خلال الشاشات الكبيرة بغرفة المراقبة، هذا ما يمكنني إخباركم به الآن».

أطرقنا برؤوسنا إلى الأرض ونحن نفكر فيما سنفعل في هذه اللحظة القاسية، لقد أُصبنا بخيبة أمل كبيرة، شعرت وكأن العالم كله ضدنا،

أحسست أننا دخلنا دوامة لا حدود لها، فجأة سمعنا صوت سيارات نقل الأموات وهي تستعد للخروج من البوابة، لم أستطع تحديد عددها من كثرة الازدحام، كل سيارة كان يتبعها ثلاثة أو أربعة من أفراد عائلة الميت، كانوا يبكون وينتحبون، وبعض النسوة تتخبط على الأرض وتولول من فرط الصدمة، أحسست بانقباض كبير في صدري، فالناس أضحت تتطاير كالريح، كل يوم تحصي الدولة عددًا هائلًا من ضحايا الوباء، الناس أضحت تموت باستمرار، والأجساد تتألم وتتهاوى بالمنازل والمستشفيات، وما من دواء لذلك، بدأت الآمال بشفاء أبي تتداعى وتضمحل، سرحت في أفكاري السوداء للحظات، ولم أستيقظ منها إلا عند سماعي لصراخ الحارس الذي كان يشير إلينا بيده وقد استشاط غضبًا: «أرجوكم اذهبوا من هنا، دعوا السيارات تمر، من فضلكم لا تزيدوا الأمر سوءًا»،

جرني «عصام» من يدي وهو يقول في ضيق: «هيا نذهب، فلن يسمحوا لنا بالدخول أبدًا مهما قلنا أو فعلنا، غدًا -إن شاء الله- نأتي لزيارته».

قالت أمي باستياء: «حتى زيارة المرضى أضحت ممنوعة الآن، لم يعد هناك ما نفعله هنا، هيا لنذهب حتى الغد، فلم يعد بإمكاني

الاحتمال»، تراجعنا عن البوابة وذهبنا لنركب السيارة، بدأت سيارات نقل الأموات تخرج تباعًا، وهي تصدر هديرًا مخيفًا، والصراخ والعويل ظل صداهما يتردد في أذني لوقت طويل.

في طريقنا إلى المنزل صادفنا عدة سيارات إسعاف تتجه صوب المستشفى، وأخرى تحوم في الحي، عندما دخلنا إلى أحد الأزقة الضيقة بالحي، وجدنا صعوبة في المرور، لأن رجلًا كان ينام بالشارع، وقد اجتمع حوله المارة، سأل أخي أحد الرجال الواقفين عما يحدث، فأخبره أن ذلك الرجل المسكين مصاب بالكورونا، ويملك منزلًا ضيقًا للغاية، ليست به إلا غرفة واحدة، وقد خشيت زوجته الإصابة بالعدوى هي وأطفالها الأربعة، فطردوه خارج المنزل، قال أخي عصام: «ولِمَ لا يأخذونه إلى المستشفى؟»،

قال الرجل: «إنهم لا يملكون هاتفًا حتى ليتصلوا بالإسعاف، لقد اتصل أحد الرجال الحاضرين الآن، وستحضر السيارة لنقله –إن شاء الله–»، قال عصام داعيًا: «نتمنى له الشفاء العاجل».

أخذ الناس يصعدون على الرصيف الضيق، ويلتصقون بالحائط، حتى تمكنا من المرور بالسيارة، عندما وصلنا أخبرتني أمي أنها ستقوم بتنظيف وتعقيم الغرفة التي كان يرقد بها والدي، أما أنا فلم أحتمل أن

أنظر إلى تلك الغرفة، لأنها تذكرني بآلام والدي ومعاناته، فاعتذرت لها وانصرفت إلى المنزل.

في المساء كنا نتابع نشرة الأخبار المسائية، إذ أُعلن عن قيام دولتنا الحبيبة بمجهودات جبارة وخطوة استباقية في استيراد بعض اللقاحات المكتشفة مؤخرًا لمحاربة الفيروس، من الصين العظيمة وأمريكا، وقد قام وفد كبير من رجال السياسة والأعمال إضافةً إلى وزير الصحة باستقبال هذه اللقاحات بالتصفيق أمام عدسات عديد من الكاميرات، التي حضرت هذا الحدث الهام.

هذا اللقاح بوسعه أن يقلل من فرط العدوى وكذلك نسبة الوفيات، إنه ذو مفعول قوي على الفيروسات، يُؤخذ على شكل جرعات، تفصل بين الواحدة والأخرى ستة أشهر تقريبًا، ولكن خاب أملي وشعرت بالأسى والأسف الشديدين بعدما تذكرت بأنه لا يُمنح للمرضى المصابين بالفيروس.. وعليه، فلن ينفع والدي في شيء.

بعد مرور نصف ساعة تقريبًا، رن جرس الهاتف، عندما أجبت عن المكالمة، أتاني صوت أمي، فجزعت، وتسارعت دقات قلبي، فأسرعت بالقول: «ماذا هناك يا أمي؟»،

أجابت للتهدئة من روعي: «لا شيء، كنت أريد فقط أن أخبرك أن الدولة استوردت اللقاح الخاص بمحاربة فيروس كورونا»،

قلت: «أجل أعلم ذلك يا أمي، لقد سمعته للتو على شاشة التلفاز»، قالت بلهفة: «لقد نصحني أخوكِ «عصام» بأن نذهب غدًا للمستوصف ونأخذ الجرعة الأولى من اللقاح، ثم بعدها نذهب إلى المستشفى لزيارة والدك، حتى لا تنتقل إلينا العدوى من أي مكان هناك»،

قلت موافقة: «نعم، إنها فكرة سديدة حقًّا، وأنا أوافقه الرأي»،

قالت بحزم: «ولكن يجب أن نذهب باكرًا حتى نأخذ الموعد، ولا نتأخر عن الذهاب إلى المستشفى»، سكتت ثم أردفت قائلة: «سنعرج عليك أنا وعصام مع السابعة صباحًا، لنذهب -إن شاء الله-»، قلت: «حسنًا أمي، سأنتظركما -إن شاء الله-».

الفصل العاشر

(الجمعة 27 مارس 2020)

في الصباح الباكر استيقظت وطلوع الفجر، صليت ثم ارتديت ملابس الخروج، وجلست أقرأ القرآن، حتى سمعت جهاز الانترفون يرن، فأجبت، ثم أخذت كمامتي وحقيبتي، لملاقاة أمي وأخي عصام، ألقيت عليهما التحية ثم انطلقنا نحو المستوصف، الذي كان قريبًا جدًّا من سكناي، سألت عن أختي «وفاء»، فقالت لي أمي إنها منشغلة بالعمل بالصيدلية، وأن اللقاح ستأخذه بالصيدلية، لأن الدولة عملت على إعطاء الأولوية في أخذ اللقاح للأشخاص الذين يعملون يوميًّا في لقاء مباشر مع الناس، كالأطباء والممرضين، ورجال الإسعاف والصيدلانيين، ورجال الأمن، ورجال الصحافة...»، قلت معقبة: «جيد أنها ستأخذه أيضًا».

في هذه الأثناء وصلنا إلى المستوصف، شهقت لدى رؤيتي لذلك الحشد الكبير من الناس الواقفين خارجًا، وكأن سكان الحي جميعهم

انتقلوا إليه، كان أحد الرجال من عون السلطة هو من يسهر على إعطاء الموعد، وتنظيم سير العملية، مستعملًا في ذلك مكبرًا للصوت.

تقدم إليه أخي «عصام» وأخذ ثلاث تذكرات صغيرة، ثم التحقنا أنا وأمي بالطابور الخاص بالنساء، في حين التحق هو بالطابور الخاص بالرجال، لم يكن هناك أي تباعد إطلاقًا كما كانت توصي وزارة الصحة دائمًا، فالمستوصف صغير للغاية ولا مجال لفعل ذلك، لا يُسمح بالدخول إليه إلا لمن وصل دوره في الحقن، كنا نقف بالخارج في مكان ضيق بجانب الطريق السيار، وكان المستوصف مقابلًا لمقهى خاص بالرجال، لذلك فالعديد منهم جلسوا في المقهى ينتظرون دورهم، أما وضعنا نحن النساء فقد كان سيئا للغاية، سألت أمي امرأة أمامها في الطابور عن الوقت الذي حضر فيه كل ذلك الجمع الغفير من الناس بالصف أمامنا، فقالت المرأة: «الناس هنا منذ الفجر، فالكل خائف ويريد أن ينجو بنفسه من شر هذا الوباء»،

فسألتها ثانية: «ومتى ستبدأ عملية التلقيح؟»،

أجابت المرأة: «أظن مع التاسعة، فغالبًا الممرضات لا يحضرن حتى التاسعة تمامًا».

وبالفعل بقينا في ذلك الطابور مدة ساعتين تقريبًا، تارة كنا نفترش كرتونًا على الأرض ونجلس، وتارة أخرى كنا نقف، حتى شعرت بقدمي قد تنملتا، وأحسست بالبرودة تسري في جسدي، ثم بدأت أعطس لثلاث مرات متتالية، رأيت العديد من النسوة تنظرن إلي في ريبة، ثم سمعت المرأة التي تقف ورائي بالطابور تقول: «لو سمحت، حاولي أن تخرجي من الصف إذا ناوبك العطاس مجددًا، فربما تكونين مصابة بالكورونا»، قلت مطمئنة إياها: «لا، أنا لست مصابة بالكورونا، أظن أنني أصبت بنزلة برد عندما خرجت هذا الصباح ليس إلا».

حضرت الممرضات نحو التاسعة، وبدأت في عملية التلقيح تباعًا، مر أخي عصام قبلنا نحو العاشرة والنصف، في حين لم يأت دورنا أنا وأمي حتى تجاوزت الساعة الحادية عشرة، لأن عدد الرجال كان أقل من النساء، كان اللقاح صيني الصنع 100%، واسمه "سينوفارم".

بعد أخذنا للقاح، سلمتنا الممرضة تذكرة كُتب عليها اسم اللقاح، وتاريخ إجراء الجرعة الأولى، وموعد إجراء الجرعة الثانية، ثم خرجنا بعدها مسرعتين إلى السيارة، وانطلقنا مباشرة إلى المستشفى.

عندما وصلنا، كان الباب الرئيسي مكتظاً بالناس كالعادة، والحارس يسأل كل واحد عن غرضه من الولوج إلى المستشفى، ليقرر بعد ذلك، هل يسمح له بالدخول أم لا، تقدم أخي «عصام» نحوه، فسأله الحارس عن سبب الزيارة، فأخبره أننا نريد أن نقابل الطبيب ليخبرنا عن حالة والدي الصحية والذي أحضرناه بالأمس مصاباً بالكورونا، فور أن أتم أخي كلامه، فتح لنا الباب وأشار إلى مكتب الاستقبال، دلفنا إلى الردهة، وسألنا سيدة شقراء في الاستقبال، فأشارت لنا إلى جناح خاص بمرضى الكورونا، والذي يوجد على اليمين بالطابق الثاني، صعدنا السلم ودلفنا إلى الممر الضيق، كان ممتلئًا بالناس عن آخره، وكأن المدينة أضحت موبوءة بالكامل، أخذنا موعدًا لمقابلة الطبيب بصعوبة كبيرة، لم نجد مكاناً نرتاح فيه، كل المقاعد مملوءة، ولا تباعُد إطلاقًا، أحست أمي بتعب وإعياء شديدين على مستوى القدمين، فنزلت أنا وهي إلى الردهة في الأسفل، في حين بقي «عصام» هناك يراقب وقت السماح لنا بالدخول.

جلست في الردهة المفتوحة حتى أستنشق الهواء، فقد شعرت كما لو أنني أختنق، وأن حرارتي قد ارتفعت، وأحسست بألم شديد في كل عرق في جسدي، بدا لي أن ذلك من جراء جرعة اللقاح التي لم يستسغها جسدي الضعيف، فقد كنت أحس بكل قطرة تنساب في

عروقي، فيُصاب جسدي بتشنجات مؤلمة، وحرقان شديد، ربما السبب أنني كنت أعاني من أنيميا حادة، إضافةً إلى أن مناعة جسمي لم تكن بالقوية كفاية لتستحمل آثار هذا اللقاح ذي المفعول القوي، بقينا ثلاث ساعات متواصلة ونحن ننتظر حتى جاء دورنا بالدخول، نودي باسم والدي فدخلنا...

كان الطبيب بدينًا، أصلع الرأس، شديد بياض السحنة، كما لو أن الدم يتدفق من عروقه، يرتدي وزرة شديدة البياض أيضًا، كان يشبك يديه على ظهر المكتب، لما ولجنا الغرفة، استقبلنا بابتسامة صغيرة، ثم أشار إلينا بالجلوس على كرسي أمامه، جلست أمي.

كانت هناك أريكة جلدية سوداء بجانب الباب، لكن فضلنا أنا و«عصام» أن نبقى واقفين حتى نتمكن من سماع كل شيء يقوله الطبيب، فتح ملفًا أزرق اللون أمامه، به مجموعة من الفحوصات والتحاليل والأشعة الصدرية وغيرها، ثم قال متأسفًا: «لقد أعدنا له تحاليل الكشف عن الفيروس، وللأسف فقد ثبتت إصابته بالفعل بفيروس كورونا»، صمت ثم تطلع إلينا قليلًا، ثم توجه بالسؤال إلى أمي: «أريد أن أسألك سؤالًا لو سمحت؟»، انتفضت أمي في مكانها،

وعدلت من جلستها، وقد تغير لون وجهها وقالت مرتبكة: «نعم، تفضل يا دكتور»،

سأل قائلًا: «هل كان مصطفى يدخن السجائر؟»، نظرنا إلى بعضنا في ذهول، فكلنا نعلم الجواب، ونعلم كم أن حقيقة هذا السؤال صعبة الآن، خصوصًا في هذه الظروف، سكتت أمي لبرهة على إثر هذا السؤال، ثم أجابت وهي تتلعثم: «أجل، كان يدخن منذ أن كان مراهقًا، ولم يستطع الإقلاع عنه أبدًا، رغم أنه كان يفقده شهية الأكل، ويزيد في هزالته، لم يتمكن من الإقلاع عنه إلا عندما كبر الأبناء، وأصبح بعضهم يخنقه دخان السجائر، وكثيرًا ما كانوا يتذمرون من رؤيته وهو يدخن، بعد أن علموا بمخاطر التدخين على صحته، وكانوا يرجونه مرارًا وتكرارًا بالابتعاد عنه، حتى أقلع عنه أخيرًا»، علق «عصام» ليختصر الحديث قائلًا: «لم يقلع عنه إلا في الثلاث سنوات الأخيرة»، ساد الصمت قليلًا فقال الطبيب: «لقد أجرينا له مجموعة من الفحوصات وتحاليل الدم والأشعة، وثبتت إصابته للأسف بالتهاب عميق في الرئة، وكذلك في الأمعاء، والتدخين كان له تأثير كبير في انسداد العروق المتصلة بالقلب والرئة، فأثَّر على طريقة التنفس لديه، إنه يعاني الآن من اختناق حاد في التنفس ويحتاج إلى جهاز تنفسي داعم أكثر قوة، لذلك سننقله إلى غرفة العناية

المركزة»، سأل عصام قائلًا: «هل يمكننا رؤيته الآن»، أجاب الطبيب: «لا، لا يمكنكم الدخول إلى غرفته، ولا حتى إلى الجناح الخاص بمرضى الكورونا»، سكت وهو يدفع كرسيه إلى الوراء ويهم واقفًا، ثم قال: «يمكنكم رؤيته عبر شاشات الكاميرا فقط، بالغرفة المجاورة إذا أردتم ذلك».

خرجنا ثلاثتنا وعلامات الوجوم على وجوهنا، دخلنا إلى غرفة واسعة بها عدة شاشات حائطية سوداء اللون، كتب الطبيب رقم الغرفة التي يرقد بها والدي على الشاشة، فظهر أبي أخيرًا، لما رأيته يجلس وحيدًا هناك بالغرفة، اغرورقت عيناي بالدموع، كان جالسًا على السرير يقرأ كتابًا لم أتبين جيدا هل هو قرآن أم مجرد كتاب، كانت ذراعاه موصولة بأنابيب صغيرة، مرتبطة بمحاليل معلقة بجانب السرير، وكان يضع جهاز تنفس صغير على أنفه، ويرفعه أحيانا عندما يسعل، ليمسح الرذاذ من على أنفه بمنديل، قال الطبيب موضحًا: «سننقله إلى العناية المركزة في المساء، لأنه بحاجة إلى جهاز تنفسي داعم في أقرب وقت»، حاول أن يقرب لنا صورة وجهه أكثر لنراه عن قرب، كنا ننظر إلى أبي الحبيب ونحن صامتون، ظلت نظراتنا متعلقة بالشاشة للحظات، وعيوننا تذرف الدموع في صمت، بعد دقائق قليلة

دخل الحارس وأعلن نهاية الزيارة، فخرجنا واجمين بلا ملامح، كما لو سُكب علينا رطل من الثلج!

خرجنا لنغرق في الزحمة، فكل الأماكن بالمستشفى أضحت مملوءة عن آخرها، حتى السلالم اكتظت بالجالسين والواقفين، مررنا بصعوبة كبيرة، أما سيارات الإسعاف فلم تعد تتوقف أبدًا، بعضها داخل وبعضها خارج، وسيارات نقل الموتى كذلك، بكاء وعويل وصرخات يتردد صداها باستمرار، كما لو أننا نعيش في حرب، حرب من نوع خاص، عندما كنا نخرج من بوابة المستشفى، رن هاتفي الجوال، وعندما أجبت، كانت صديقتي «سارة» تنتحب، وهي تتكلم بطريقة غير مفهومة، أدركت من خلالها أن والدتها قد توفيت، كانت قبل ثلاثة أسابيع قد أخبرتني بإصابتها بالوباء أيضًا، حاولت تهدئتها لكن بدون جدوى.

في طريقنا عرجنا على منزلهم لتقديم العزاء، وجدنا والدها يقف بالباب يتلقى عبارات التعازي من بعض الناس من بعيد، صعدت أنا وأمي إلى منزلهم، فور أن رأتني صديقتي حتى ارتمت تعانقني وهي تبكي بحرقة وتردد كلمات ترثي بها أمها، لم يكن هناك أحد لمواساتهم بالمنزل على الإطلاق، كان المنزل فارغًا تماما من الناس، لم تكن إلا هي وثلاثة

من أخواتها الصغار، حزنت لحالهم حقًّا، بعد نصف ساعة تقريبًا حانت مني التفاتة إلى وجهها، فلاحظت أنها لا ترتدي الكمامة، فسرت في جسمي قشعريرة، بعد ثوان قليلة من إدراكي للأمر، اعتذرت منها ورجعت إلى البيت.

كنت أحس أنني لست على ما يُرام، كان رأسي يؤلمني لدرجة لا تُصدق، وحرارة جسمي في ارتفاع مستمر، وكان أنفي يسيل أيضًا، في البداية لم أنتبه لسيلان أنفي لأن المخاط كان يختلط بدموعي الحارقة، أما الآن فإني أراه ينزل بوضوح، كنت أحس بأن كمامتي مبتلة من جهة الأنف والفم، ولكني كنت أظنها فقط بسبب حرارة نفسي، أو بسبب دموعي المنهمرة، ولكنني كنت مخطئة، صرت ألصق المناديل الورقية على أنفي باستمرار، حتى لا يتساقط المخاط على ملابسي، حملت هاتفي وبعثت برسالة إلى «وفاء» أخبرتها فيها بالأعراض كلها التي بت أستشعرها، حتى تصف لي دواء مناسبا لحالتي، أخبرتني بألا أخاف، لأن جسمي يحاول أن يتجاوب مع اللقاح، وهناك العديد من الناس حصل لهم مثل ذلك بعد تلقي جرعة اللقاح، كما نصحتني بعدم تناول أي مضاد حيوي الآن، وللتخفيف من الحرارة والصداع يُسمح فقط بتناول المسكنات من نوع الـ"دوليران"، أما الأدوية الأخرى فيُمنع أخذها منعًا باتًّا تجنبًا لأي مضاعفات.

عند خروج زوجي إلى السوق طلبت منه أن يعرج على الصيدلية، ويحضر لي معه أقراص الـ"دوليبران"، ثم استلقيت على السرير وغفوت، ولم أستيقظ إلا عند السادسة مساءً، لم يتبقَّ على أذان الإفطار إلا ساعة تقريبًا، قمت من السرير بصعوبة، ولما حاولت الوقوف شعرت بالدوار، فعدت لأجلس على حافة السرير، أحسست بجسدي ضعيفًا متكسرًا، وأنفي وحلقي يحرقانني كثيرًا، لدرجة لا أستطيع معها بلع ريقي، قاومت ووقفت وذهبت إلى المطبخ، وأعددت الحساء، لكن عاودني الدوار مرة أخرى، فناديت على زوجي، وطلبت منه متابعة تحريك الحساء ومراقبته حتى ينضج، وإعداد القهوة أيضًا، ثم رجعت إلى السرير.

عند الإفطار صليت المغرب جالسة في مكاني، وعندما حاولت أن آكل تمرة وجدت صعوبة في البلع، كما لم أعد أتذوق الطعام البتة، لم أشرب سوى القليل من الحساء من دون أن أتذوقها، ثم تناولت الدواء، مرت ساعات ولم تنخفض حرارتي، وفي نفس الوقت كنت أحس بالارتعاش والحمى في كل جسدي، بقيت على هذه الحال طوال الليل، كنت أغفو لدقائق وأصحو، لم أنم تلك الليلة قط، كنت أتخيل نفسي أنني أحتضر، وأنها ساعاتي الأخيرة لا محالة.

في صباح اليوم التالي اتصلت أمي تسألني إذا كنت أرغب في أن أرافقها و«عصامًا» لزيارة والدي، فأخبرتها أنني مريضة جدًّا، فأصرَّت أن أذهب للطبيب، وألا أهمل صحتي كما فعل والدي، وأخبرتني أنها ستمر عليَّ بالسيارة مع عصام ليأخذاني إلى الطبيب، ثم بعدها يذهبان إلى المستشفى، بعد نصف ساعة تقريبًا كنا عند باب المصحة، عندما نزلت من السيارة انتابتني نوبة من السعال، وأحسست حينها بخروج بلغم لزج فوق لساني، فبصقته على الفور، صعدت الدرج بشق الأنفس، كنت أتنفس بصعوبة، وزادت الكمامة من اختناقي، لدرجة جفَّ معها حلقي تمامًا، فأخذت أسعل من جديد أكثر فأكثر، دلفت إلى داخل العيادة، وهي لطبيبة مشهورة بالحي الذي نسكنه، تعمل بالطب العام، شديدة الكفاءة، يأتي إليها المرضى من مناطق بعيدة، كانت المصحة هي الأخرى مكتظة عن آخرها، حتى أن بعض الناس ينتظرون دورهم خارج باب العيادة، أنا الأخرى لم أجد مكانًا، فجلست بالدرج حتى وصل دوري، دخلت إلى قاعة الفحص، كان الفراش باردًا، فأحسست برعشة تدب في جسدي، رعشة اختلط فيها الشعور بالخوف مع البرد، في البداية قاست لي مساعدتها حالة الضغط، وبعد دقائق قليلة دخلت الطبيبة.. كانت جميلة كعادتها، بشرتها بيضاء كالثلج، وعيناها سوداوان ذات رموش كثيفة، متوسطة

الطول تضع حجابًا على رأسها، كانت ترتدي فوق الكمامة قناعًا بلاستيكيًّا شفافًا يغطي كل الوجه حماية لها من العدوى، وزوجًا من القفازات، عندما رأتني ابتسمت في وجهي وقالت: «ماذا يضرك أيتها الفتاة الجميلة»، قلت مرتبكة: «بالأمس كنت قد أخذت الجرعة الأولى من اللقاح، وفي المساء ارتفعت حرارتي كثيرًا وشعرت بالصداع؟»،

سألت: «أهناك سيلان أنفي وعطاس أو سعال؟»،

أجبت بقلق: «أجل، بالأمس أحسست بالسيلان الأنفي، وكنت أعطس بين الفينة والأخرى، أما السعال فلم أستشعره إلا هذا الصباح»، بعد ذلك طلبت مني أن أسعل فسعلت، ثم سألت قائلة: «عندما سعلت هل كانت الكحة عادية فارغة أم تحتوي على رغام؟»،

قلت شارحة: «أحس بشيء لزج يخرج من حلقي ممزوجًا باللعاب عندما أسعل»،

قالت متأسفة: «أظن للأسف أن ذلك نتيجة الالتهاب الحلقي، أشك يا ابنتي قرابة 90% أنها الكورونا».

شهقت مرتعبة، فقالت: «لا تخافي، فالمرض من الله، والشفاء بيده وحده، ويجب أن يكون إيماننا قويًّا بالله، وأن نعلم أن كل ما يعطيه لنا الله خير، فقط علينا أن ندعو الله ونؤمن بالقدر خيره وشره»، قلت: «ونعم بالله».

قالت: «المهم أننا ما زلنا لم نتأكد بعد، سأجري لك الآن اختبار الكشف عن الفيروس، حتى أعرف أي نوع من الدواء يجب أن أصف لك، هل أنت موافقة؟»، سألتني بعجل، قلت وأنا متوترة: «أجل، موافقة».

في البداية طلبت مني أن أرجع رأسي للوراء، وأدخلت عودًا طويلًا من القطن داخل فتحة أنفي إلى حد البلعوم الأنفي، لا أدري كيف أصف ما أحسست به حينها، لم يكن مؤلمًا، لكن الشعور به داخل الأنف أمر سيئ للغاية، استحملت ذلك العود المغروس في داخل أنفي لمدة خمس دقائق، وبعدها أخرجته بعد أن أخذت عينة من المخاط، ثم وضعتها بجهاز صغير شبيه بجهاز الكشف عن الحمل لدى النساء، وانتظرت تقريبًا خمس دقائق، وبعدها ظهرت النتيجة.

كانت المفاجئة صادمة للغاية، لم أتوقع ذلك بتاتًا، ولم يخطر ببالي قط، لقد كانت النتيجة للأسف إيجابية، وقد أُصبت أنا الأخرى

بعدوى الكورونا، تجمدت مكاني من أثر الصدمة، ووضعت يدي على جبهتي غير مصدقة، ضاع الكلام مني، لأول مرة أشعر أن الأرض تدور وتدور، لم أفكر بتاتًا في هذا الأمر، كنت أظن أن ما أعانيه فقط بسبب جرعة اللقاح، وسينتهي بعد يوم أو يومين سريعًا، لكنني كنت مخطئة تمامًا، بقيت مطأطئة رأسي للحظات، وعقلي يتخبط في الأسئلة.. إذن أنا مصابة بالكورونا كوالدي، ماذا سأفعل الآن؟ كيف سأخبر أمي وأخي بهذا؟ إني لأشفق على حالهما أكثر مما أشفق على نفسي...

أيقظني صوت الطبيبة من أفكاري وهي تقول بحزم: «يجب أن تكوني شجاعة وصبورة، وألا تخافي أو تكتئبي، بل قاومي حتى تتغلبي عليه، ويجب أن يكون أملك بالله كبيرًا، فهو القادر على شفائك»، بعد ذلك مدت لي وصفة الدواء، وقدمت لي بعض النصائح الواجب اتباعها في فترة الحجر، والتي تستلزم مني عناية خاصة بصحتي، وأخبرتني أنه يجوز لي الأكل خلال النهار، رغم أننا في شهر رمضان، من أجل أن أتناول الدواء، وبعد أن أُشفى –إن شاء الله– أعيد صيام تلك الأيام، بعدها خرجت من العيادة، كنت أمشي كالمسحورة، بعينين دامعتين، أول ما صادفني هو وجه أمي، كانت تتفحصني بنظرات قلقة، سألت بعجل: «ماذا قالت لك الطبيبة؟»، أشحت

ببصري عنها، وواصلت المسير واجمة تمامًا، لحقت بي وهي تسأل وأنا لا أجيب، فدائمًا في المصائب ينعقد لساني، لا أدري لماذا!، عند الباب الخارجي للمصحة كان يقف «عصام»، لما رآنا نخرج، أسرع وفتح باب السيارة.

عندما وصلت بمحاذاته قلت له: «شكرا، لا داعي، سأذهب ماشية إلى المنزل، اذهبا أنتما إلى المستشفى الآن»، قالت أمي: «اركبي لنوصلك إلى المنزل، فأنت مريضة، وقد تسقطين بالشارع في أية لحظة»، قال «عصام» مؤكدًا كلامها: «نعم، اركبي نوصلك إلى المنزل بسرعة ثم نذهب، فأنت لا تبدين بخير أبدًا»، قلت بعد أن أجهشت بالبكاء: «لا أريد أن أعديكما أنتما أيضًا»، سقطت كلماتي على آذانهما كالصخر، وقد اتسعت عيناهما في دهشة، سأل عصام في ذهول: «أأنتِ أيضًا مصابة بالكورونا؟»، أومأت برأسي قائلة وأنا أذرف الدموع: «أجل، للأسف»، قالت أمي وقد ارتسمت علامات الحزن على وجهها: «لا تبكي ولا تجزعي يا ابنتي، حاولي أن تكوني قوية، ستشفين –بإذن الله–»...

بكيت بدل الدموع دمًا عندما تذكرت أن مثل هذه الكلمات كنا نقولها لأبي المسكين، وها هي تتردد على مسامعي أنا أيضًا، صرت أمر

الآن من نفس الطريق التي مر منها، وأعاني نفس المعاناة، في هذه اللحظة لاحظت أمي أنني أمسك وصفة الدواء في يدي فقالت: «هاتي الورقة، سيذهب عصام إلى الصيدلية ليشتري لك الدواء»، مددت نحوها بالورقة التي كانت مغلفة بكيس من البلاستيك، سحبت الورقة من الكيس ثم مدتها إلى عصام وقالت: «لقد خطرت لي فكرة الآن وهي أن تجلسي معي بالمنزل إلى أن تُشْفَيْ، حتى لا تنقلي العدوى لابنك وزوجك»، لم أقل شيئًا ولم أبد أي اعتراض، سكتت أمي ثم أردفت قائلة: «هيا لآخذك إلى المنزل، بينما يشتري لك «عصام» الدواء، وبعدها أذهب أنا وهو إلى المستشفى».

سرت أنا وهي ولكن متباعدتين قرابة متر أو أكثر، سرنا بخطوات متثاقلة مرتبكة، فقد كان السعال يشتد عليَّ شيئًا فشيئًا، كنت بين الفينة والأخرى أتوقف عن المسير، وأبصق على جانب الطريق، بدا ليا العالم مختلفًا أكثر هذه المرة، فقدت الإحساس بمن حولي، أمشي مطأطئة دون أن أتطلع في الوجوه، وكنت لا أرغب في أن يتطلع إليَّ أحد حينها.

بعد أن وصلنا إلى المنزل، كان أول ما طالعني به تلك الغرفة التي كان يرقد بها والدي، تسمرت نظراتي عليها، بدأت أتقدم نحوها بخطى

حثيثة، قالت أمي وهي تقف خلفي: «لقد نظفتها، وعقمتها جيدًا، أتحبين الجلوس فيها؟، أم تأخذين الغرفة الثانية؟»، دلفت إلى داخلها، وقد سرت في جسدي قشعريرة غريبة، تأملتها بعيون فاحصة، وأجبت بنبرة ضعيفة: «سأبقى هنا»، دخلت أمي المطبخ، فيما بقيت أنا أتأمل الغرفة التي ستكون سجني الجديد، سجني الانفرادي هذه المرة، بدأت أتفحصها، وكأني أراها للوهلة الأولى.

كانت الغرفة صغيرة ذات جدران باردة، بحكم أنها تطل على واجهة الشارع مباشرة، علق على أحد جدرانها صورة فوتوغرافية لأبي وأمي في أول أيام زواجهما، وهناك على المنضدة وُضعت صورة أخرى لأبي رفقة مجموعة من أصدقائه في العمل، ثم نظرت إلى السرير ذي اللحاف المزركش الذي كان يرقد عليه والدي منذ أيام قليلة، فارتسمت صورته في مخيلتي، وكأني أراه أمامي مباشرة، آه كم اشتقت إليه! آه كم يؤلمني حاله وحالي!؟ آه وألف آه، على هذه الذكرى المؤلمة!، بالأمس فقط كان والدي يعاني هنا، وها قد جاء دوري الآن!، غابت أمي خمس عشرة دقيقة تقريبًا ثم عادت، ووضعت الصينية على المنضدة بجانب السرير وقالت: «حاولي أن تأكلي قبل أن تتناولي الدواء، لقد دفأت لك الحساء، اشربيها حتى لا تبرد»...

في هذه الأثناء، رن جهاز الانترفون، ليدخل أخي «عصام» ومعه أختي «وفاء» بعد دقائق، وقفا بباب الغرفة ليطمئنا عليَّ، نظرا إليَّ بحزن وخوف شديدين، قالت وفاء: «لقد صُدمت حقًّا لما سمعت بالخبر، ولكن لا تخافي، قدر الله وما شاء فعل، حاولي أن تنتبهي لصحتك.. كلي جيدا كي تقوي مناعتك، واشربي الدواء بانتظام وستُشفين -بإذن الله-»، أومأت برأسي وأنا أمسح بيدي الدموع المنهمرة على خدي، قالت أمي: «حاولي أن ترتاحي الآن، سنتصل بزوجك «أحمد» لنخبره بالأمر، وبأنك ستبقين هنا حتى تُشفين -إن شاء الله-»، سكتت ثم التفتت إلى «عصام» و«وفاء» وهتفت قائلة: «هيا لنذهب كي لا نتأخر أكثر!»، خرجوا جميعًا وصفقوا الباب وراءهم.

بقيت وحيدة، سجينة الغرفة، أتقطع حزنًا من الداخل، ها هو ذا المرض المخيف والقاتل الذي كنت فقط أسمع عنه بالأمس يسكن ذاتي الآن، يتملك كل قطعة من جسدي، حلقي ملتهب لدرجة لا أستطيع معها بلع ريقي، أشعر بالدوار والغثيان رغم أن معدتي شبه فارغة، لم تعد لدي شهية للأكل، فقد فقدت الإحساس بالتذوق، حرارة جسمي لا تنخفض أبدًا، أشعر وكأن جسدي يحترق من الداخل، الصداع يطرق على رأسي بلا هوادة، رغم تناولي لكل

المسكنات. عدت أتأمل الأشياء من حولي، كانت صورة أبي موضوعة على المنضدة، أخذتها وبدأت أتأملها وأنا أنتحب، لقد اشتقت إليه كثيرًا، تمنيت أن أسمع صوته في هذه اللحظة، وأن ينصحني ويواسيني بكلماته الحانية، لكني تذكرت أنه في وضع أصعب مني الآن، وهو يعاني أكثر مما أعاني، هو نفسه بحاجة إلى من يواسيه ويخفف من ألمه وحزنه.

في هذه الأثناء، سمعت هاتفي المحمول يرن، أجبت بصوت خفيض، كان زوجي «أحمد»، بدا قلقًا ومنزعجًا للغاية، قال إنه لم يصدق ما سمعت أذناه عن خبر إصابتي بالفيروس، قلت بارتباك واضح: «أنا أيضًا لم أكن أتوقع ذلك»، قال: «حاولي أن تهتمي بصحتك، كي تتعافي بسرعة»، قلت: «سأحاول ذلك»، قال: «سآتي في المساء لأطمئن عليك، هل تحبين أن أحضر لكِ معي شيئًا؟».

أجبت: «لا، ليست لدي شهية للأكل».

قال: «حاولي أن تأكلي، ولو ليست لديك شهية بذلك، حتى تقاومي الفيروس فيخرج رافعًا راية الاستسلام».

ضحكت بصعوبة وقلت: «حسنًا سأفعل ذلك –إن شاء الله–».

في المساء عادت أمي و«عصام» من المستشفى، في حين التحقت «وفاء» بعملها بالصيدلية، لما دخلت المنزل وقفت عند عتبة باب الغرفة وهي تسألني عن حالي وحال صحتي، كان وجهها يبدو أسود من شدة الأسى والحسرة، سألتها عن أبي فقالت بضيق: «يبدو أنه قد ساءت حاله أكثر، لم يكن بتاتًا كما رأيناه بالأمس، لقد نقلوه إلى غرفة العناية المركزة مع ذوي الحالات الحرجة، لم نره يتحرك بتاتًا، لا ندري هل كان نائمًا، أم أعطوه منومًا ما، المهم أننا لم نطمئن لوضعه اليوم البتة، أخبرنا الطبيب أن التهاب الرئة عنده أصبح حادًّا، ووصل إلى درجة صعبة تُقدر بثمانين في المئة، وهي درجة خطيرة جدًّا، تسبب انسدادًا كبيرًا في الشرايين المتصلة بالقلب، ومِن ثَم اختناقًا حادًّا في التنفس.

قبيل ساعة الإفطار، قالت لي أمي أن أتصل بـ«أحمد» ليأتي كي يفطر معنا في المنزل، بعد دقائق قليلة جاء وأحضر معه بلالًا، أخذ «أحمد» يسألني ويحدثني من وراء الباب، فجاء «بلال» بعدما سمع صوتي وطلب من «أحمد» أن يفتح الباب، لأنه اشتاق إليَّ، ويريد رؤيتي، فأخبره «أحمد» أن ذلك ممنوع، لأن الطبيب أمرني بذلك، لكن قبيل الأذان، طرقت أمي عليَّ باب الغرفة، وأخبرتني أنها وضعت صينية الطعام بجانب الباب، لما فتحته وخرجت، أسرع «بلال»

المسكين لمعانقتي، إلا أن «أحمد» نهره، وأمسك بيده وأخذه بعيدًا عني، دخلت وأغلقت الباب مكرهة ورائي، لكنني سمعت «بلالًا» المسكين يبكي، فتقطع قلبي ألمًا عليه، فأجهشت في البكاء أنا أيضًا، فإضافةً إلى ألم المرض، كان هناك ما هو أشد إيلامًا، وهو ألم البُعد.

كان «بلال» يبكي وأنا أبكي أيضًا بالداخل، تألمت كثيرًا لأنني لم أستطع أن أرى ابني أو أعانقه، ولم أستطع أن أشاركهم الجلوس على مائدة الإفطار، كنت معزولة وحدي في الغرفة، حزينة مكتئبة، الجميع يخاف الاقتراب مني، الجميع قد هجرني، عائلتي، أحبابي، صديقاتي، بكيت وبكيت حتى جفت دموعي، بدأت أكلم نفسي كالمجنونة، أطرح العديد من الأسئلة ولا أسمع لها جوابًا، فجأة سمعت صافرة سيارة الشرطة تمر من أمام المنزل، لقد بدأت حالة الطوارئ من جديد، بدأت بمواساة نفسي، تذكرت أن هناك الملايين من الناس يعانون مثلي، وهم لا يختلفون عني في هذا الحجر، لحظة من اللحظات، بدأ عقلي يخاطب روحي قائلًا: «أنتِ لستِ وحيدة أبدًا، فالله معكِ، والملائكة معكِ أيضًا، حاولي أن تعتادي العزلة، انسي المعاناة، حاولي أن تملئي وقتك بأشياء تنسيك ألمك، اقرئي القرآن، بل هذه هي فرصتك لتحفظيه كاملًا، اكتشفي ذاتك، أظهري مواهبك، نفذي ما كنت ترغبين بفعله عندما لم تكوني تملكين الوقت لفعله، تعلمي قواعد

التجويد»، أخذت هاتفي وبدأت بحفظ القرآن وتعلم قواعد تجويده، من خلال بعض الفيديوهات التعليمية على "اليوتيوب"، بقيت أتابع ذلك بشغف حتى غلبني النعاس فنمت.

الفصل الحادي عشر

(السبت 28 مارس 2020)

في الصباح الباكر، وبعد بزوغ الفجر بدقائق قليلة، كنا ما نزال نيامًا، أيقظني صوت جرس هاتف أمي الذي كان يرن بإلحاح، صادحًا مكسرًا للسكون المخيم في المنزل، فتحت عيني بصعوبة، فلم أنم جيدًا الليلة المنصرمة، ربما لأنني لم أعتد أن أنام إلا في سريري الخاص، كان المنزل يخيم عليه السكون التام، يبدو أن أمي ما زالت تغط في النوم، فكرت أن أخرج لأجيب عن المكالمة، أو على الأقل لأسكته، فقد كان صوته عاليًا ومزعجًا للغاية، لأن والدتي وكما يعلم الجميع بدأت تعاني مؤخرا من قلة السمع، ولذلك كانت تطلب منا دائمًا أن نضعه لها على أعلى مستويات الصوت، فركت عيني بيدي الاثنتين واستقمت جالسة في السرير وأنا أستعد للخروج، لكنني ما لبثت أن تراجعت بعدما تذكرت أنه ممنوع عليَّ الخروج من الغرفة بسبب مرضي المعدي جدًّا، سمعت بعد ثوان قليلة أمي وقد استيقظت، وهي تردد

بحنق: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، من يتصل بي في هذا الوقت المبكر؟»،

سمعتها وقد فتحت المكالمة وهي تقول بصوت منزعج: «ألو»، ثم سكتت لبرهة، ثم سمعتها تقول في ارتباك: «نعم أنا هي»، بعد ذلك سمعتها وقد صرخت فجأة مرددة: «مات؟!، مصطفى مات!، لا لا لا يمكن ذلك!، هذا غير صحيح»، ثم أطلقت بعد ذلك صرخة عالية تردد صداها في أرجاء البيت، وبعدها أطبق الصمت تمامًا، سقط قلبي بين ضلوعي، وارتعدت أوصالي كلها، نزلت من السرير بسرعة فائقة، وفتحت الباب بيدين مرتجفتين لأجدها مرمية على السجادة، فاقدة الوعي، وبجانبها الهاتف، صرخت وقد جثوت على ركبتي بقربها، وأنا أنادي متوسلة: «أمي، أمي هيا أفيقي، أتوسل إليك، أخبريني ماذا هناك؟ أيمكن أن يكون والدي قد مات؟، أيمكن أن يكون ما سمعته صحيحًا؟، لا لا لا يمكن ذلك!، هيا أفيقي! لا تتركيني على هذه الحال!»، أردت أن أضرب على وجهها كي تستيقظ لكني تذكرت مرة أخرى مرضي اللعين، أسرعت إلى المطبخ وملأت كوبا بلاستيكيًّا بالماء، ثم أخذت أرشها به إلى أن استعادت وعيها، وفتحت عينيها المحمرتين، نظرت إليها بعينين دامعتين وأنا أسألها: «هل مات؟، هل أبي مات حقًّا؟ هل صحيح ما سمعت؟»، نظرت إليَّ بصعوبة، وأومأت

برأسها وهي تبكي بحرقة، لم أتمالك نفسي فأطلقت صرخة مدوية وأنا غير مصدقة إطلاقًا، وبدأت أردد كالمجنونة: «أبي حي، أبي سيعود، نعم سيعود قريبًا»...

بكيت وبكيت حتى صارت الشهقات تهز جسدي كله، وانتابتني نوبة من السعال حتى كدت أختنق، وأحسست بعدها أنني سأفقد وعيي، فذهبت إلى الغرفة واتكأت على جانب السرير مواصلة بكائي ونحيبي، بعد دقائق قليلة سمعنا طرقات على الباب، خطت أمي خطوات متثاقلة وفتحته لتجد جارتنا «نعيمة»، والتي كانت هي الأخرى مصدومة وهي تسأل عن سبب صراخنا، أخبرتها أمي بالأمر فرددت: «الله أكبر، إنا لله وإنا إليه راجعون، رحمه الله وجعل مثواه الجنة –إن شاء الله–»، ثم حاولت مواساتنا بعبارات لم أسمعها، لأنني كنت أغرس رأسي في طرف السرير غير مصدقة، أخذت أصم أذني بكلتا يدي حتى لا أسمع ذلك الأمر مرة أخرى، فعقلي المسكين لم يتقبل ذلك أبدًا، في تلك اللحظة أطلَّت عليَّ المرأة من باب الغرفة، وهي تحثني على التحلي بالصبر أمام مصيبة الموت، رفعت رأسي لما لمحت ظلها بباب الغرفة، نظرت نحوها، كانت تغطي وجهها بطرف حجابها، لا يظهر منها إلا العينان، أخذت تلقي عليَّ بعبارات التعزية من بعيد، وهي تثبت طرف حجابها على وجهها، وكأنها تتوجس مني

خيفة، وفور أن سمعتها تنطق كلمة الموت حتى أجهشت في البكاء مرة أخرى.

بعد وقت ليس بالقصير، وقفت أمي محاولة استعادة رباطة جأشها، وهي تردد بصوت خفيض حزين: «إنا لله وإنا إليه راجعون، رحمك الله يا «مصطفى» وجعل مثواك الجنة»، ثم بدأت تنادي عليَّ بصوت مخنوق: «تعالي يا زينب يا ابنتي، لقد اختاره الله أن يكون بقربه الآن، وعلينا أن نرضى بقضاء الله ونصبر»، سكتت ثم قالت باكية: «اتصلي بأخيك «عصام»، كي يأتي لنذهب إلى المستشفى لإتمام مراسم الدفن، رجلاي لم تعودا قادرتين على حملي لكي أصعد إلى الطابق الثالث وإخباره»، في الحقيقة كنت أنا أيضًا في تلك اللحظة غير قادرة على الكلام، ولا على صعود درجات السلم، فرجلاي لم تعودا قادرتان على حملي جراء الصدمة.. أنقذتني جارتنا أخيرًا، واقترحت أن تذهب لإخباره بعدما رأت عجزي عن فعل ذلك.

ذهبت أمي إلى المستشفى رفقة «عصام» واثنين من أعمامي وخالي للتعرف على جثة أبي الفقيد، أما أنا فلم يكن وضعي الصحي يسمح لي بالذهاب معهم لتوديعه إلى مثواه الأخير، ظللت أتخبط في الحزن وحدي بالمنزل، ليس معي أحد من العائلة أو الأصدقاء ليواسيني في

هذا الظرف العصيب، حتى صديقتي المقربة لم تكلف نفسها عناء المجيء لرؤيتي بعدما علمت بإصابتي، فقد قدمت لي التعازي عبر الهاتف فقط، إني أعذرها حقًّا، فهذا الوباء الغادر، خطف والدتها أيضًا، كما خطف ملايين من الناس، ولذلك من حقها أن تخاف على نفسها.. إنها ما زالت لم تتعاف من الصدمة وهي تعاني الآن من اكتئاب حاد، وقد نصحها الطبيب بالراحة وعدم الانغماس في الأحزان.

بعد أن وصلوا إلى المستشفى لم يسمحوا لهم بالدخول جميعًا، بل تمكنت أمي فقط من الدخول بعد أن طلبوا منها ارتداء اللباس الواقي الذي يغطي كامل الجسم، للتعرف على الجثة، وبعد إنهاء كل الإجراءات، أخرجوا جثمان والدي مباشرة إلى المقبرة، ذهب «عصام» رفقة أعمامي لحضور مراسم الدفن، في حين عادت أمي رفقة خالي و«وفاء» إلى المنزل، لم يعطونا شيئًا من ملابسه وأغراضه، فقد قاموا بحرقها بالكامل، إلا المصحف الذي أعطيته له يوم ذهابه إلى المستشفى، فقد دفنوه معه في القبر، على حد قولهم، كما أنهم لم يسمحوا بحضور الجنازة إلا للمقربين، لم نتلقَّ العزاء من الناس مباشرة، بل أغلب التعازي كانت عبر الهاتف...

أما أنا فقد كنت أعيش أحلك أيام حياتي، لا أرى أحدًا ولا أحد يراني، حتى أقرب المقربين إليَّ، ليس هناك من يواسيني أو يخفف من عذابي، أقاسي الأمرَّين، أقاسي ألم فراق والدي، وأقاسي ألم المرض، وليس أي مرض، إنه مرض الموت، والذي قضى على ملايين من الناس عبر أنحاء العالم، وقضى على أقرب الناس إليَّ؛ قضى على والدي الحبيب، وحرمنا منه للأبد، كدت أُصاب بالجنون خلال هذه الأيام، الكل خائف الآن على نفسه من العدوى، الكل خائف من أن يسرقه الموت على حين غرة، حتى الموت بهذا الوباء مخيف، إنه موت له طعم خاص، موت مباغت دونما سابق إنذار، لا يسمح بتوديع الميت ولا بتغسيله، أو تجهيز الكفن له، لا جنازات، لا مآتم للعزاء، بل كل تلك الأمور أصبحت تتكلف بها وزارة الصحة بداخل المستشفيات، درءًا لانتشار العدوى، ففور أن يدخل المصاب إلى المستشفى، لا أحد يستطيع رؤيته، أو زيارته، إلا إذا تماثل للشفاء، أما من لم يكتب له الله الشفاء من هذا الوباء، فمصيره إلى القبر مباشرة، وهذا الأمر صعب للغاية، سواء بالنسبة للأموات أو الأحياء أيضًا.

الفصل الثاني عشر

مر أسبوع تقريبًا على إصابتي بالفيروس، صارت الحياة فظيعة بالنسبة لي، لقد فقدت متعتها نهائيًّا، قواي خارت، وانهارت تمامًا، لم تعد لي شهية للأكل أو الشرب، دخلت في مرحلة من الاكتئاب الحاد، أصبحت أتمنى الموت لأرتاح من الألم، ومن السجن الذي أعيشه داخل غرفتي، كنت كلما زارني زوجي وابني «بلال» ازددت حزنًا وألمًا، لأنني لم أكن أراهما مباشرة، بل أحدثهما فقط من خلف الباب، أصبحت أيامي متشابهة، لم أعد أرى أحدًا من الناس، لم أعد أتنفس هواءً جديدًا، صرت أحس بالاختناق، صار الملل يغلف حياتي كاملة.

في أحد الأيام اتصلت بي أختي «وفاء» لتطمئن على حالتي، فاستشعرت ما أحسه من ملل واكتئاب، فبادرت بنصحي، أخبرتني أن هذه المرحلة التي أعيشها صعبة جدًّا وحاسمة، وتحتاج مني أن أكون قوية وشجاعة، وغير منهزمة، كي أتغلب على هذا الوباء اللعين، فحالة الاكتئاب التي أعيشها الآن لن تساعدني على الشفاء أبدًا، بل

ستزيد من حالتي سوءًا، وتضعف مناعتي، حتى يتمكن مني هذا الفيروس القاتل...

نصحتني بأن أملأ وقتي بأشياء تنسيني ألمي ومعاناتي، تنسيني التفكير في كل ما هو سلبي، أشياء تملأ عليَّ حياتي كلها، تجعلني إنسانة سعيدة لا ترضى بالاستسلام، ذكرتني بعمل كنت شغوفة به في أيام الثانوية وكذلك في المرحلة الجامعية، ذكرتني بشغف الكتابة، الذي افتقدته بعد زواجي، وانشغالي بأسرتي، كم كنت أحب نظم الشعر، وكتابة القصص!، فعلًا هذا ما كنت بحاجة إليه، كيف لم يخطر ببالي كل هذا الوقت؟، لطالما كانت الكتابة مثل طبيب نفسي بالنسبة لي، وخصوصًا في مرحلة المراهقة، أحببت هذه النصيحة من أختي، وتمنيت لو أنها أمامي لأعانقها وأشكرها على مدِّي بهذه الفكرة الجميلة، المهم أنني وعدتها بالشروع في الكتابة، والتفكير في كل ما هو إيجابي، لأرفع من معنوياتي، وأكون بحالة نفسية جيدة.

لقد اكتشفت أن الدعم النفسي له مفعول كالسحر على نفسية المريض، لقد تغيرت نفسيتي بعد هذه المكالمة فعلًا، وكأن الله –سبحانه وتعالى– أرسلها لي في هذا الوقت العصيب بالذات، لتذكرني بذلك حتى أسترجع إحساسي بالحياة من جديد.

بعد إنهاء المكالمة مباشرة، قررت أن أغير من إيقاع حياتي الرتيبة، وأن أشرع في الكتابة، أدرت رأسي في الغرفة، لعلي أجد ورقة أو قلما، لكنني لم أجد شيئا إطلاقًا، فكرت أن أطرق الباب، وأطلب من أمي أن تبحث لي عن دفتر وقلم حبر، لكن تراجعت عن ذلك، بعد أن خطرت لي فكرة أخرى، وهي الكتابة باستخدام تطبيق "الوورد" على الهاتف المحمول، حملت الهاتف بين يدي، وجلست على السرير أفكر، من أين سأبدأ الكتابة؟، هل أكتب عن ماضيّ الذي أصبحت أتمنى أن يعود؟، أم أكتب عن حاضري الأليم المظلم هذا؟!، أحيانًا نود فقط أن نحكي ما يلم بنا، وأنا الآن سأحكي، وسأكتب ما عشته وما أثّر في نفسي وغيّر حياتي، لكن هذه المرة لن أمزق ما كتبت، كما كنت أفعل في الماضي، بل سأترك كل ذلك للذكرى والاعتبار.

الفصل الثالث عشر

بعد مرور أسبوعين على إصابتي بالفيروس، وقيامي بحجر صحي صارم بالمنزل، حان الآن وقت القيام بفحص مخبري جديد لأتأكد من سلامتي، وخلو دمي من آثار الفيروس نهائيًّا.

استيقظت باكرًا جدًّا، كنت متحمسة للخروج من الغرفة التي سُجنت بها لأسبوعين متتاليين تحت ما يُسمى بـ"الحجر الصحي المنزلي"، نزلت من السرير، وفور أن لامست قدماي الأرض، أحسست ببرودة تسري في كل أوصالي.. كانت قدماي ترتعدان كثيرًا، كنت كطفلة تحاول الوقوف لأول مرة، حاولت الوقوف مستندة إلى السرير، ثم استندت بعد ذلك على الحائط، حتى استطعت الوقوف معتدلة، فجسدي لم يعد معتادًا على المشي لقلة الحركة، إنها المرة الأولى التي أغادر فيها غرفتي، وأغادر فيها المنزل أيضًا، كنت سعيدة للغاية، كنت أحس أن حالتي الصحية قد تحسنت هذا الأسبوع

بدرجة كبيرة، لم أعد أسعل، ولم تعد حرارتي مرتفعة ولله الحمد، كنت متفائلة بشفائي...

وبينما كنت أهم بالخروج من المنزل رفقة والدتي، لمحت دراجة والدي النارية مركونة عند مدخل الباب، اقتربت منها وقد اغرورقت عيناي بالدموع، وأنا أتخيل أبي جالسًا عليها، كم كان يحبها!، كم كنا نحن أيضًا نحبها! رغم أنها كانت قديمة الطراز، وقد أكلها الصدأ، بقيت أربت عليها كطفل صغير، وأنا أستحضر الأوقات التي امتطيتها رفقته، والتي لن تُمحى من ذاكرتي، فجأة عاودتني صور ذلك الكابوس اللعين، ورأيت صورة الأفعى وهي تمد رأسها أمامي تحاول أن تنقضّ عليَّ، ثم لحظة أن انقضّت على والدي ولدغته، ثم رأيت الناس تتلوى وتسقط على الأرض، أدركت حينها أن الكابوس اللعين قد تحقق معي في الواقع فعلًا، وأن حقيقة تلك الأفعى هي الكورونا بالتحديد، عندما أخبرت أمي بذلك، قالت محذّرة: «حاولي يا ابنتي ألا تروي الكوابيس أو الأحلام السيئة لأحد، لأنها تتحقق بعد ذلك.. نعم، فمرضك، ووفاة والدك، وكل ما سببته الكورونا من مأساة بالعالم أجمع، يفسر تحقيق ذلك الكابوس حقًّا».

هكذا أيقنت أن الكوابيس السيئة تتحقق معنا بالفعل عندما نبوح بها، لكنني علمت ذلك متأخرة للأسف.

خرجت إلى الشارع، بدا لي كل شيء مختلفًا، كان أكثر إضاءة، ربما لأن عيني اعتادتا على ضوء الغرفة الخافت، عدلت من وضع الكمامة على وجهي، وسكبت المعقم على يدي وفركتهما معًا، ثم ركبت السيارة من الباب الخلفي الذي فتحه لي أخي مسبقًا، وانطلقنا جميعا نحو المصحة الموجودة بالحي.

لما رأتني الطبيبة، حيّتني بابتسامتها المعهودة، وقالت: «هذه المرة تبدين بحالة جيدة، نتمنى أن تكون النتيجة سلبية -إن شاء الله-»، وبينما هي تقوم بفحصي كنت أدعو الله في سري بأن يرزقني الله الصحة والعافية، وأن أتماثل للشفاء، حتى أعود لحياتي الطبيعية كما كنت.

وبالفعل كانت النتيجة سلبية، ومن ثَم فقد شُفيت من الوباء، وتخلصت من الفيروس نهائيًّا ولله الحمد.. تخلصت من ذلك السجن داخل الغرفة أيضًا، لكن رغم كل هذا، فقد خرجت فقط من السجن الأصغر للسجن الأكبر، لأن الوباء ما زال يطوق حياتنا بكل قسوة وشراسة، تاركًا وراءه المزيد من المآسي والمعاناة والأحزان.

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأَةِ والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

المحتويات

الفصل الأول..... 6

الفصل الثاني 20

الفصل الثالث..... 48

الفصل الرابع..... 54

الفصل الخامس..... 58

الفصل السادس 63

الفصل السابع 79
الفصل الثامن 85
الفصل التاسع..... 103
الفصل العاشر..... 116
الفصل الحادي عشر..... 138
الفصل الثاني عشر 144
الفصل الثالث عشر 147

نبذة عن المؤلفة

ولدت 'زينب مشهور' بمدينة الدار البيضاء عام 1981م، في أسرة عرفت بحبها للقراءة وطلب العلم، فأدمنت قراءة القصص والروايات منذ الصغر، حتى تولد لديها شغف الكتابة وهي في المرحلة الإعدادية. حصلت على شهادة الإجازة في الأدب العربي من جامعة الحسن الثاني كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية عام 2005م، وعملت أستاذة للغة العربية بالمدارس الحرة مدة عشر سنوات، لتنتقل بعد ذلك للعمل بالمدرسة العمومية سنة 2017م.

من إبداعاتها: قصيدة "أسماء"، وقصيدة "أستاذي"، وقصيدة "عشرون عاما" التي حازت على المرتبة الأولى بالبرنامج الإذاعي 'سكن الليل' بإذاعة FM سنة 2003م، ثم قصة قصيرة بعنوان "الرحيل" سنة 2005م، وأخيرا روايتها الأولى "كابوس الكورونا" سنة 2023م.

من الرواية

فتح الباب الحديدي المؤدي لقسم المستعجلات، وخرج منه العديد من رجال الإسعاف وهم يدفعون النقالات ذات العجلات، وينقلون المرضى المصابين بالكورونا الواحد تلو الآخر، حاولت أن أتقدم أنا وأخي عصام وثلاث نسوة أخريات، لكن حارس الأمن منعنا، وشرع في إغلاق البوابة، وخاطبنا بصوت خشن من وراء القضبان الحديدية قائلا: "لا يمكنكم الدخول، فهذا الجناح الخاص بمرضى الكورونا خطر جدا، فالعدوى تسري في المكان كله، ويمنع منعا باتا الولوج إليه"..

Bassmabook
0021277181493
Contact@darbassma.net

تصميم الغلاف: ساخر أحمد